النثر الفنى

عند محمد توفيق دياب

موضوعاته وخصائصه الفنية

الدكتور

محمد على سعد

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

جامعة الأزهر الشريف

٢٠٠٧م

مقدمة :

يشغل النثر الأدبى حيزاً كبيراً فى دائرة الأبحاث الأدبية ؛ لما له من مكانة وقدرة ، ودور فعّال فى التعبير عن قضايا الشعوب ومشكلاتها وحاجاتها ، ورسم ملامح تطورها ورقيها ، وكذا ملامسته لحاجات الإنسان ، لما يمتاز به من الدقة والوضوح واليسر ، والبعد عن التعقيد وجنوح الخيال .

وقد كان للنهضة الأدبية الحديثة فى مصر أثر كبير فى انبعاث النثر وتطوره ، فكان أسرع تطوراً من الشعر ، وأجدر منه على التعبير عن متطلبات الانبعاث القومى والدينى والاجتماعى ؛ ذلك أن كتاب النثر أكثر إطلاعا وأوسع ثقافة ، وأوفر جدية من الشعراء ، مما جعل النثر أكثر تعبيرا عن قضايا عصره .

وظل النثر الفنى يسرع الخطا نحو البساطة واليسر فى التعبير عن الموضوعات ، حتى كانت المقالة بكل أنواعها إحدى ثمار هذا التطور ؛ استجابة لمطالب وضرورات سياسية واجتماعية وثقافية ؛ إذ لم تعد الأساليب العربية القديمة المتكلفة قادرة على التعبير عن كل مناحى الحياة الحديثة ومظاهرها وقضاياها . وما إن أطل القرن العشرين حتى شاعت ثقافات الغرب ، وتعمق بعض الأدباء فى دراسة آدابها وفنونها ؛ فتغيرت طرق الكتابة لتغير طرق التفكير ، فراح الكتاب يعتمدون لوناً طريفاً فى ترتيب الكلام وتبويبه ، ويقصرون كتاباتهم على المعانى ودقتها ، وعلى الأساليب السهلة ، الخالية من الزينة اللفظية وأنواع البديع ، لتجرى مع الطبع ومتقضيات كل فن وكل حال ، كما اتسعت مجالات النثر وموضوعاته

وبخاصة المقالة التى تناولت القضايا السياسية والاجتماعيـــة والثقافيـــة ، ومشكلات الحياة وقضايا الأمة .

وقد كان " محمد توفيق دياب " واحداً من أولئك الذين اهتموا بالكتابة النثرية وبخاصة المقالة دون سواها من الفنون الأدبية الأخـــرى ، فـــراح يرسل قلمه متناولاً قضايا مجتمعه(المصرى) وقضايا الأمة العربية السياسية والاجتماعية والثقافية ، من خلال مقالات امتازت بفصاحة الأسلوب وبلاغته ودقته ووضوحه ، فضلا عما يتمتع به من عاطفـــة صـــادقة ، وإحســـاس مرهف ، وتأثر واضح من صاحبه بالقضايا والموضوعات .

وقد ظل " دياب " يكتب فى الصحف ، حتى كون لنفسه رصيداً كبيـــراً من هذا الفن فحاول أن يجمع شتات هذه الموضوعات فى كتاب واحد ، وقد كان له ذلك ، إلا أنه لم يستطع أن يجمع كل ما كتبه ، فراح ينتقـــى منهـــا كمن ينتقى الزهور والرياحين من الرياض النضرة ، ووضـــعه فـــى كتـــاب أطلق عليه اسم " اللمحات " جمـــع فيـــه موضـــوعات سياســـية وروحيـــة واجتماعية وخلقية وأدبية ، على أمل أن يواصل جمع ما تبقـــى مـــن هـــذا الجهد الأدبى ، إلا أن القدر لم يمهله لفعل ذلك ، فرحل وترك هـــذا الكتـــاب القيم ، ليكون ثروة أدبية قيمه له من بعده .

هذا وقد أشار إلى منهجه فى إنتقاء واختيار ما ورد فى هذا الكتاب ، ففى مقدمته يقول : ولما كان جمع بعض ما تفرق من هذه الآثار ، مما قدم به العهد أو لايزال ماثلا فى الأذهان ، عملا قد لايخلو من نفع قل أو كثر – رأيت أن أختار للقارىء الكريم فصولا من نتاج القلم واللسان ، منها الطوال ومنها القصار ، ولكنها لا تعد أن تكون " لمحات " بالقياس إلـــى البحـــوث

المستفيضة التى قد يستنفد علاج أحدها كتابا برمته . وقد رأيت أن أتقيد فى عرض هذه اللمحات بتاريخ إلقائها أو كتابتها ، دون التقيد بتشابه موضوعاتها ، فأقرن كل نظم إلى نظيرة فى باب للسياسات . وباب للاجتماعيات وآخر للتربية والأخلاق مثلا – وإنما سقتها مساق التخفيف على القارىء ، والترويح عنه ، بسرعة التنقل به بين أجواء الفكر وألوان العاطفة .

ولما كان الكتاب بهذه الصورة وتلك الأهمية ، لما اختاره صاحبه فى داخله من موضوعات لما كان الأمر كذلك ، حاولت الوقوف على ما فيه واستجلاء موضوعاته وبيان ما اتسمت به تلك الموضوعات من خصائص فنيه ، فكان هذا الموضوع الذى بين أيدينا وهو : " نثر " محمد توفيق دياب قضاياه وخصائصه الفنية " .

كما أنه من دافع دراسة هذا الموضوع أن أحداً لم يتناول هذا الكتاب بالدراسة الأدبية التى تكشف عن شخصيته وأدبه .

وقد اقتضت خطة البحث أن تكون على النحو التالى :

- مقدمة : بينت فيها طبيعة الموضوع وسبب اختيارى له .
- الفصل الأول : " عناصر التكوين فى شخصية محمد توفيق دياب " . بينت من خلاله أهم ملامح سيرته ، من مولد ونشأة وثقافة.
- الفصل الثانى : " نثر توفيق دياب قضاياه وموضوعاته " حللت وناقشت من خلاله أهم الموضوعات والقضايا التى تناولها .
- الفصل الثالث : الخصائص الفنية لنثر توفيق دياب " حاولت من خلاله الوقوف على أهم الخصائص الفنية التى اتسم بها هذا النثر .

- الخاتمة : وقد رصدت فيها أهم النتائج التى تمخض عنها هذا البحث .
- فهرس بأهم المصادر والمراجع .
- فهرس الموضوعات .

﴿ هذا والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل ﴾

دكتور

محمد على سعد

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

جامعة الأزهر الشريف

﴿الفصل الأول﴾

﴿عناصر التكوين في شخصية محمد توفيق دياب﴾

توطئة :

تبدو ضرورة التعرف إلي أحوال المبدع – من نشأته وحياته ومذهبه – أمرا ضروريا وحتميا لمحاولة تحليل النص وتذوقه، والوقوف علي أسراره ، وتفهم التجربة ومدي صلتها بمبدعها ومحاولة استكشاف الأبعاد الشعورية التي تكمن وراء تلك التجربة ؛ إذ يعد النص نشاطا فنيا لقائله ، وصورة دالة علي شخصيته ، فيكون مصبوغا بمناهله الثقافية ومذهبه الفكري ، ومشيرا إلي وضعه المعيشي ، ومعبرا عن حالته النفسية التي نشأ فيها النص .

لذا فانه من الواجب عند تقديم نص أدبي – شعرا أو نثرا – أن تراعي شخصيه المبدع بآراها وأفكارها ؛ بحيث تعكس المحيط الذي نمت فيه والتربة التي عهدت هذا النمو ؛ كي يتم احتواء النص في إطار وشائجه المتداخلة مع عصره وظروف مجتمعه .

وهذا يجرنا إلى محاولة التعرف إلي الحالة النفسية للأديب ، أو العوامل والمؤثرات التي أسهمت في تكوين شخصيته وتلوينها بالقدر الذي يسهم في إظهار أبعاد التجربة التي يصورها .

وقد قرر علماء الاجتماع أن الرواسب والجذور الممتدة عميقا في الحياة الإنسانية هي المسؤلة عن كل سلوك يتم داخل المجتمع ، وهي فوق

هذا نادرا ما تتغير ؛ لأن أهم صفاتها الثبات ، كما أنها أحد العوامل التي تؤثر في طبيعة العلاقات الاجتماعية ([1]) .

ومن هذا المنطلق تأتي أهمية إلقاء الضوء علي عناصر التكوين في شخصية الكاتب والأديب " محمد توفيق دياب " لنستجلي أهم عناصر الإبداع في نثره الفني . وبخاصة وأن أحدا لم يكتب عن هذا الرجل من هذه الزاوية (الزاوية الأدبية) ، ولكي نصل إلي ذلك ينبغي أن نقف علي أهم ملامح حياته .

مولده ونشأته وثقافته :

ولد الكاتب " محمد توفيق دياب " في ١٨ مايو سنة ١٨٨٨ م في قرية " سنهوت البرك " من أعمال مركز منيا القمح بمحافظة الشرقية ، من أسرة كريمة موفورة الفضل ، وصفها " عزيز أباظة بأوصاف ثلاث :

أولها : ترابطها وتوثق أواصر بيوتها بعضها ببعض المعسر فيها أخ الموسر وشريكه .

وثانيها : أن مضيفتهم أو الدوار كانت ترحب بالمضيق عليهم من زوارها في الجاه والرزق أكثر مما ترحب بالمدود لهم في الجاه و المبسوط لهم في الرزق . وثالثها : أن الأسرة كانت لطيفة الخلق والعشرة في غير ضعف ، عذبة الحديث ،وهو طابعها جميعا .([2])

([1]) تاريخ النظرية في علم الاجتماع ، در محمد عاطف غيث ص ٤٩

([2]) مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الرابع والعشرون يناير ١٩٦٩ م من مقال لعزيز أباظة في تأبين محمد توفيق دياب ، ص ٢٥٩ .

وكان طبعيا أن يرث " توفيق دياب " هذه الصفات من " الأسرة الديابية " التي ينتمي إليها ، والتي كان لها الأثر الكبير في حياته كما سنري .

هذا بالإضافة إلي أن والده " موسي بك دياب " كان قائدا في الثورة العرابية ، وقد حكم عليه بالإعدام ، ونزعت منه رتبة "أمير الاي" ،ثم خفف هذا الحكم وحددت إقامته في قريته " سنهوت البرك " ، فضلا عن أنه تفتحت عيناه علي واقع البلاد المرير ، وقد جثم الاحتلال علي صدرها وتحكم في مقدراتها ، فكان ضروريا أن يؤثر كل ذلك في تكوين شخصيته كما سنري فيما بعد .

وعلي عادة أهل القرية أدخله والده كتاب القرية ، فحفظ ما كان يسمي بالختمة الأولي من القرآن الكريم . ثم بعث إلي القاهرة فأدخل في مدرسة الجمالية ، حيث نال الشهادة الابتدائية ، ثم أمضي تعليمه الثانوي بين المدرسة الخديوية ومدرسة رأس التين ومنها ظفر بشهادة الدراسة الثانوية ، وكان من أوائل الناجحين .

انتقل – بعد ذلك – إلي مرحلة جديدة من مراحل حياته التي اعتمد فيها علي رأيه وتفكيره ، فالتحق بمدرسة الحقوق ولعله لم يأنس لها ولم تأنس به ، ففارقها إلي " لندن " ليستكمل دراسته في التربية والتعليم ،وكان وراء هذه الرحلة سر يكفي الوقوف عليه لمعرفة التكوين النفسي لشخصية "محمد توفيق دياب " وكان ذلك سنة ١٩٠٧ م ، وهو ذاك العام الذي ظهرت فيه مقدمات الجامعة المصرية التي أنشأها الشعب ، وكان من هذه

المقدمات اختيار بعض شباب التعليم العالي لإيفادهم في بعثات إلي الخـــارج كي يعودوا فيشكلوا النواة الأولي من هيئة التدريس الجديدة بالجامعة .

قضي " توفيق دياب " في لندن خمس سنوات ، لم يلتزم خلال دراسته فيها بفرع دراسي معين ، وإنما تنقل بين مختلف الفروع بشـــغف دراســـي فريد ، ينهل من كل ما يروي ظمأه العلمي ، فدرس الأدب والخطابة ،كمـــا درس الفلسفة والتاريخ والاقتصاد والروحانيات ، ولم يتقدم في كل ذلك لنيل شهادة ما ، فكان كما قال هو عن نفسه : " أنا أتعلم لكي أستزيد مما أحـــب من العلم " ولعله أوضح نفسه أو أوضح مذهبه في الدراســـة وتحصـــيل العلم من خلال مقالته " الشهادة الدراسية والرجل " والتي يقول فيها : (١) " الرجل مجموعة كبيرة من القوي والمواهب والصفات – ولا تدل الشـــهادة الرسمية إلا علي أن طائفة من تلك المواهب والقوي ، أربعا أو خمسا فـــي الكثير الغالب – قد مرنت علي ما خلقت له من الوظائف والأعمال ، مرانـــا ربما كان مشوها منقوصا " .

وبهذه الطريقة وذاك المنهج راح " توفيق دياب " يجمع العلم للعلم لا للشهادة واللقب فبينما كان يتلقى دروسه في التربية وعلم النفس ذهب يوما إلي معهد فنون الإلقاء " الكونسيرفتوار " ، وكان هـــذا اليـــوم هـــو نقطـــة التحول في حياة " توفيق دياب " فقد عدل عن دراسة التربية وعلم الـــنفس بعد أن حصل منها الكثير وانصرف إلي دراسة فنون الإلقاء . وكان بـــذلك

---

(١) اللمحات ١٣٨ من مقال "الشهادة الدراسية " منشورة فى فبراير ١٩١٢ .

أول شاب عربي في تاريخنا الحضاري يتوفر توفرا كاملا علي دراسة هـذه الفنون .(١)

ويحدثنا " دياب " عن هذا العنصر الذي أسهم في تكوين شخصيته في رسالة بعث بها من لندن إلي أخيه " حسن ديـاب " بتـاريخ ١٠ نـوفمبر ١٩١٣ ، يخبره فيها علي اعتزامه تعلم وتدريس فن الخطابة ، حيث يقول في أسلوب بياني مشرق يدل غلي شخصية تملك زمام القول والكتابة : (٢) " نفسي قد هدتني في النهاية إلي الشيء الذي خلقني ربي له . ربي خلقني لأجل أن أكون خطيبا ومعلما للخطابة في مصر . هذا أمر غريب في مصـر لا يوجد وسأوجده أنا . المعلمون الذين يعلمون فن الخطابة والإلقـاء هنـا كثيرون وعظماء . أما في مصر فهذا أمر غير موجود . الخطيب يجـب أن يكون حساسا شديد الانفعال وأنا ذلك الشـخص . يجـب أن يكـون حـاد الشعور. قوي الصوت شديد الثقة بنفسه وأنا ذلك الشخص . فلماذا لا أكون أول شخص في هذا الأمر يعلم المصريين أن الخطابة والإلقاء فـن عظـيم كفن الموسيقي أو التمثيل أو غيرهما من الفنون العظيمة الأخـرى . لـذلك ذهبت إلي أساتذة في لندن لأتعلم هذا الفن العظيم " .

وتزداد ثقته بنفسه ويتوقد إحساسه ، ويري أنه سيكون المبرز بـل الأوحد في مصر الذي يملك زمام هذا الفـن ، ويعلـم أصـوله وقواعـده

---

(١) عمالقة الصحافة ، حافظ محمود ، كتاب الهلال عدد ٢٨٤ ، ١٩٧٤ م ص ٥٦ .

(٢) هذه الرسالة وغيرها مما أرسلها دياب إلى أسرته وقعت تحت يدى الكاتب محمود فـوزى ، ونشر بعضها فى كتابه " توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية " وهـذا الجـزء يقـع فـى جـ ١ / ٢٦ من هذا الكتاب.

وسيشهد له الجميع بذلك – وقد حدث – ولاغرو في ذلك فأسلوبه يعد جزءا من هذا الطموح الذي تحقق ؛ يقول " دياب " في رسالته التي أرسل بها إلى أخيه: ([1]) " ولكني مع ذلك متأكد من شيء آخر هو أنه لن يكون في مصر بعد ثمانية شهور تلميذ آخر مثلي يحيى فى مصر فنا عظيما دارسا بحيث يشهد له كل من سمعه يتكلم أنه تعلم واستفاد في أوروبا . سأكون عظيما في فني . سأبرهن أن بين جنبي نفسا وقوة إلهيه بما سيسمعه تلامذتي والسامعون من القوة الخطابية والتأثير الذي يثير من القلوب لهبا حاميا أو تسيل من العيون دموعا غزيرة " .

وقد تحقق له ما أراد ، فقد صار واحدا من أعظم الخطباء في مصر ، وذلك بشهادة الزعيم والخطيب الكبير " سعد زغلول " حين قال : " إن في جريدة السياسة من هو أخطب مني وهو توفيق دياب " وما كان ليقول ذلك لولا براعة " دياب " في هذا الشأن . ولاشك في أنه ما وصل إلي تلك الدرجة إلا بعد جهاد ومثابرة ، و بخاصة وهو في لندن ؛ حيث وجد نفسه بين أمواج متلاطمة وأنواء عالية لولا قوة عزيمته وشدة جلده لجرفه التيار واحتوته الأمواج ، وقد عبر عن تلك الحالة قائلا : ([2]) "رحلت إلي لندن أنشد المعرفة . فإذا أنا في بحر لجي ، أمواجه ملايين من الخلق، لهم علوم وفنون ، وحضارة ومجد ، تليد وطارف . وفيهم جمال وفينا شباب " .

([1]) السابق ص ٢٦.

([2]) اللمحات ص ١١٨ من مقال "فى طريق الهدى" ١٩٤٤ .

ومما ساعد في تكوين شخصية هذا الكاتب ، أنه فى أثناء دراسته في لندن لم يكن طالب شهادة ، وإنما كان طالب علم وطالب معرفة ، فتنقل في كلياتها أو فى أغلبها علي الأصح ؛ فدرس الأدب ودرس الفلسفة ؛ ودرس الروحانيات ، ودرس الاقتصاد ، ودرس التاريخ ، ولم يتقدم في كل ذلك لشهادة ما . (١) وقد أشار إلي ذلك في مقالته " الشهادة الدراسية والرجل " مناشدا بني وطنه بأن يجعلوا كل همهم تحصيل العلم والمعرفة -لا نيل الشهادة فحسب ، فيقول : (٢) " ادخلوا الجامعات في الشرق والغرب يا بني مصر أفواجا أفواجا ، وأحرزوا شهاداتها الكبرى كل عام زرافات زرافات – فما أقصد- أن ألويكم عن الصراط المألوف صراط الذين يطلبون العلم ، ويأخذون الحكمة من معاهد الحكمة . لكني مع ذلك أناشدكم أن تنالوا الشهادة عفوا في طريق طلب العلم – لا أن تنالوا العلم عفوا في طريق طلب الشهادة " .

وبهذه الروح الوثابة والعزيمة الصلبة ، والتكوين الثقافي الواسع ، والشخصية القوية عاد " محمد توفيق دياب " إلي أرض الوطن (مصر) بعد أن حقق رغبته و وصل إلي ما كان ينشده من تعلم فن الخطابة ، وقد استطاع أن يصف لنا حالته النفسية ويبرز عناصر التكوين فى شخصيته بعد عودته من لندن فى مقالة بعنوان " أعرني سمعك يا جون بول " يخاطب فيها الإنجليز غلبت عليها الحماسة والثقة بالنفس ، فضلا عن الأسلوب

---

(١) انظر مجلة مجمع اللغة العربية ، عدد ٢٤ / ٢٦٠ .
(٢) اللمحات ص١٣٩ نشر ١٩١٢ .

الأدبى ، فيقول : ([1]) " فإذا أعرتني سمعك، فإنما تعيره رجلا تعلم لغتك وهو غلام ،ودرس في عاصمتك وهو شاب ، ثم عاد إلي بلاده وفي صدره شعلة من نار الحماسة ونور المعرفة . أما الحماسة فللمثل العليا التي قرأها في كثير من كتبكم ، وأخذها من كثير من علمائكم . وأما المعرفة فبوجوه الإصلاح التي لابد منها لكل شعب يريد النهوض : أعنى إقامة نهضة على أساس متين من الأخلاق ، وإشعار ذوى السلطات أو العلم أو المال ، بأن سلطانهم وعلمهم ومالهم ، إنما هي أدوات في أيديهم لخدمة المجتمع ".

وان قوام الحياة لأدني المواطنين حظا ، يجب أن يكون غذاء يكفيه ، ومسكنا صحيا يؤويه ، ورعاية طبية تحميه أو تشفيه ، وطرفا من التربية والتعليم يسمو بإنسانيته ، ويحقق نفعه لنفسه وللوطن " .

ونلحظ أن الكاتب ركز علي شيئين اثنين عاد بهما من لندن وأصبحا مركوزين فى شخصيته وبين حنايا نفسه هما : الحماسة والمعرفة ، وبهذين الشيئين وضع الكاتب رؤية لنهوض المجتمع وتقدمه ورقيه .

وهكذا نرى مدى الطاقة الهائلة التى تموج بها نفس الكاتب ، والرغبة القوية في الانتفاع بما حصله من ثقافة وعلم ، من أجل خدمة مجتمعه وأمته وقضايا أفرادها ، لذا لم يكن غريبا . حينما يري فيه الإنجليز هذه الروح وتلك الغيرة علي قضايا أمته ومجتمعه – أن يحملوه على الرجوع من لندن مرتين في الأعوام الخمس التي تعلم فيها ([2]) لكن هيهات

([1]) اللمحات ص ١٠٢ من مقال بعنوان "إعرانى سمعك يا جون بول" نشر بالهلال ١٩٤٦.
([2]) انظر مقاله السابق ، ١٠٢ .

هيهات وقد أوتي هذه الرغبة وتلك العزيمة في تحصيل العلم والمعرفة وكل ما هو صالح لنفسه ووطنه .

وقد رسم الكاتب لنا طريقته ومنهجه في نشر علمه وما حذقه من فن، فقد قصر دعوته علي الحث علي الأخلاق الفاضلة والمثل العليا في الفرد والجماعة وعلى بيان واجبات المواطن لربه ووطنه ونفسه .

هذا وقد لقيت دعوته من خلال مقالاته وخطبه استجابة كبيرة بين مستمعيه وقارئيه . كما ظهر تأثيرها علي كثير من الغيورين علي مجتمعهم ومقدراته والتي كانت آنذاك في أيدي الاحتلال الإنجليزي ، وعن هذا الأثر يحدثنا الأستاذ عزيز أباظة ، فيقول : ([1]) " ولقد حضرت طائفة من المحاضرات فاستطعت أن أقدرها وأعجب بها علي قدر فهمي في تلك السن واستطعت كذلك أن أتبين بنفسي مدي تأثر مستمعيه به وبمقدرته الخطابية البالغة ، ومدي إقبالهم الكبير على ما كان يلقيه عليهم ، ولم يكن يلقي عليهم إلا كل ما يجمع بين الأصالة والطلاوة " .

والسر فى ذلك أن الثقافة التي تربى عليها الكاتب منذ نشأته من حفظ القرآن الكريم والتخلق بأخلاق أهل الريف ، بالإضافة إلى الثقافة التى أخذ بها نفسه أثناء مراحل تعليمه داخل مصر وخارجها قد آتت ثمارها الطيبة.

وقد وضَح " توفيق دياب " منهجه في الخطابة والموضوعات التي كان يحاضر فيها وكانت تلقي صدي كبيرا لدي كثير من المتلقين ، وذلك في قوله : ([2]) " وعلَوْنا المنابر خلال الحرب العالمية الأولي . وقصرنا دعوتنا

([1]) مجلة مجمع اللغة العربية ٢٤/٢٦١ .

([2]) اللمحات ١٠٢.

أيا مئذ علي الأخلاق المثلي في الفرد والجماعة ، وعلي واجبات المـواطن لربه و وطنه و نفسه . " .

ومن عناصر التكوين فى شخصية " توفيق " ومكوناته الثقافية اتجاهه إلي الصحافة يمدها بمقالاته وبحوثه ، التي تحمل بـين سـطورها الحـس المرهف والذوق الأدبي الرائق ، فضلا عن الأسـلوب الأدبـي الواضـح ، واللغة السليمة التي تصل إلي الإفهام من أقرب طريق ؛ فكتب في الأهـرام وفي الأخبار علي عهد الصحفى الكبير أمين الرافعى ، وكتب فـي (وادى النيل) ، ثم انقطع لصحيفة (السياسة) يحررها منذ إنشائها مع نخبة من رملائه حتى سنه ١٩٢٥ م ، حيث عين بالجامعة المصرية فبقي بها إلي أن استقال سنه ١٩٢٨ ، ثم آثر بعد ذلك ألا يتقيد بخطـة صـحيفة بعينهـا ، فأصدر صحفه ومنها "الضياء" و"اليوم" و"الجهاد" . (١) هذا وقـد تعـرض توفيق دياب طوال حكم "صدقي" لعدة محاكمات انتهت إحداها بالحبس سـتة أشهر مع إيقاف التنفيذ في مارس ١٩٣٢ بسبب نشـره صـور خطابـات نسبها إلي رئيس الوزراء "إسماعيل صدقي" موجهة إلى مأمورى الأقسـام يطلب إليهم فيها تزوير الانتخابات لصالح ممثلي حزب الشعب .

---

(١) انظر مجلة مجمع اللغة العربية عدد ٢٤/٢٦١ ، وسنكتفي بهذا في اتجاهه إلي الصـحافة ، إذا كتب عنه في هذا الاتجاه كتابات عدة منها الكتاب القيم "توفيق دياب ملحمـة الصـحافة الحزبية" لمحمود فوزي وهو مكون من جزأين ، تناول فيهما حياة الرجل وجهاده الصحفي، وكذا كتاب " الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية" لنجوى كامل ، والتي أفردت جزءا خاصـا بتوفيق دياب والصحف التي نشرها والعقبات التي اعترضت طريقة لذا يصـبح مـن غيـر المفيد إلا فاضة في هذا الموضوع .

أما المحاكمة الثانية فقد حكم عليه بالسجن فعلا ثلاثة أشهر بتهمة إهانة البرلمان وأضيف إلي هذه المدة الحكم السابق الذي صدر عليه بالحبس ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ وبذلك أصبحت المدة التي حكم عليه فيها بالسجن تسعة أشهر في فبراير عام ١٩٣٣ م . ([1])

ومن عناصر التكوين في حياة الكاتب " محمد توفيق دياب " والتي كان لها أثر كبير في مسيرته السياسية والأدبية ، دخوله مجلس النواب عضوا منتخبا ، في سنه ١٩٣٦ م ،وقد قام بدور بارز في هذا المجلس ، وكان له فيه صولات ومواقف مذكورة وخطب مأثورة .

ومن أهم عناصر التكوين ، وبخاصة في الجانب الثقافي والأدبي ، أنه اختير _ لماله من فضل لا ينكر في فن القول والكتابة ، وحس أدبي عال – عضوا بمجمع اللغة العربية ، بل إنه انتخب ليعمل في عدة لجان في هذا المجمع منها : لجنة العلوم الفلسفية والاجتماعية ، ولجنة الآثار والعمارة ، ولجنة الحضارة ، وهذا إن دل علي شيء فإنما يدل علي اتساع ثقافته وتمكنه في كثير من العلوم والمعارف ، وكان هو أول صحفي إن لم يكن الصحفي الوحيد الذى اختير بالإجماع عضوا في مجمع الخالدين ، وقد أشاد به المجمعي الكبير" زكى المهندس "بقوله: ([2]) " لقد قضي " توفيق دياب " بيننا أكثر من أربعة عشر عاما كان فيها مثالا للإخلاص والوفاء لأصدقائه وزملائه ، فما أذكر أني رأيته يوما غاضبا علي أحد ، أو ساخطا

([1]) الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية. د/نجوى كامل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ ص٨٠ .

([2]) توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ١ / ١٠٣ . اللمحات ١٢٨ ، ١٢٩ .

علي أحد ولكنه كان محبا للجميع محبوبا من الجميع .... وكان – طيب الله ثراه – طيب القلب نقي السريرة ، كل ما في قلبه علي لسانه ، لا يعرف المداورة ولا النفاق ، وكان شديد التواضع إلي أبعد حد ... سألته يوما وهو جالس بجانبي في مجلس المجمع ومعركة الجدل علي أشد ما تكون حول مسألة علمية : " لم لا تشارك يا توفيق في النقاش " ؟ فأجابني يقوله : "أنني أجيء إلي المجمع لأتعلم لا لأناقش " .

وهكذا رأينا مما سبق كيف كانت حياة الكاتب "توفيق دياب" وكيف كانت تربيته ونشأته ، ومراحل تعليمه ، ومكونات ثقافته وروافدها ، ورأينا كيف شكلت هذه العناصر المختلفة شخصية الكاتب ونفسيته ، مما كان له الأثر الكبير في حياته . وفي نظرته للحياة كلها ، وقبل أن نترك هذا الجانب ينبغي أن نشير إلي أمر مهم فى شخصية "توفيق دياب" وهو الجانب الأدبي، والموهبة الفذة التي تتمتع بها في هذا المجال .

محمد توفيق دياب أديبا :

كان من عناصر التكوين في شخصية "توفيق دياب" ذلك الجانب الأدبي القائم على الإحساس المرهف ، والذوق الرفيع ، وفوق ذينك الموهبة التي ظهرت أمارتها في أكثر من جانب، فقد برع الكاتب – كما رأينا – في فن الخطابة بما له من خصائص فنية ، وكذا برع في الجانب الصحفي ، فأبلي فيه بلاء حسنا ، ولم يكن ليتوافر له كل هذا إلا من خلال حس أدبى ، وإحساس متوقد .

ومن ثم يجدر بنا الوقوف علي حدود هذه النزعة الأدبية وأهم اتجاهاتها ومظاهرها ومن أولى هذه المظاهر الدالة علي نزعته الأدبية ذلك الفن الذي برع فيه وهو الخطابة بما لهذا اللون الأدبي من خصائص فنية وصفات ينبغي توافرها في صاحب هذا الفن ، فقد كان "دياب" خطيبا له مدرسة في الأداء التعبيري ، كان من الصعب أن ينازله أحد فيه يقول عنه أحد معاصريه واصفا ما كان يتمتع به من بلاغة وفصاحة وحس متوقد ودراية كاملة بهذا الفن الأدبى : ([1]) "كان توفيق دياب أول عربي درس فنون الخطابة والإلقاء في لندن ، ثم عربها علي الطبيعة في القاهرة .. وكان من الصعب أن ينازله غيره في الخطابة لقد كان يخطب بلسانه وبحواسه الخمس كلها .. فإذا صعد منبر الخطابة أحسست إن فرقة بكامل هيئتها تتكلم وتعبر بالإشارات عما تقول .. كان صوته داكنا ، ولكنه استطاع أن يخلق من هذه (الدكنة) موسيقي خطابية لم يبق شاب يمارس

([1]) المعارك في الصحافة والسياسة والفكر بين ١٩١٩-١٩٥٢ م ، حافظ محمود ؛ ط ٢ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٥ ، ص٩٩ .

الخطابة في العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات إلا قلدها ... وهكذا لم يستطع إخوان "توفيق دياب" أن ينازلوه في أية معركة خطابية ."

ولم يكن ليتوافر له هذه الصفات الخطابية إلا من خلال الثقافة الأدبية واللغوية الواسعة ، التي تمكنه من تصريف القول ، وتجاوز لحظات الحيرة، والدهش بما يملك من زاد يتيح له الكلام في مناسبة ، وعلي أي مستوى . ([1])

وهذا ما أقره "ابن قتيبة" في قوله : ([2]) " أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ([3]) ، ساكن الجوارح قليل اللحظ متخيرا للفظ ... ويكون في قواه فضل للتصرف في طبقة . "

وفي " البيان والتبيين " : "رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخير الألفاظ "([4])

لقد انعكست شخصية "دياب" الأدبية علي فنه الخطابي ، وضح ذلك في موضوعات خطبه وأسلوبها [1] ، ويرجع الكاتب "انطون الجميل" روعة أسلوب "دياب" وبيانه الخطابي وحسه الأدبي إلي كثرة إطلاعه من المناهل الأجنبية والعربية فيقول : [2] " وقد ساعده في أسلوبه الكتابي وبيانه الخطابي ما ادخره من مطالعة كتب الفرنجة من الأفكار والمعاني العصرية ،

([1]) راجع الخطابة بين النظرية والتطبيق ، د/محمود محمد عمارة . سلسلة البحوث الإسلامية ٨٩/١ .

([2]) عيون الأخبار ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣ ، ٢/ ١٧٣.

([3]) الجأش : رواع القلب إذا اضطرب بعد الفزع .

([4]) البيان والتبيين – الجاحظ– الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣ ، ٤٤/١

وما اكتنزه من كتب العرب من ثروة لفظية قلما ظهر بها كاتب . فهو وإن لم يتعرض ـ فيما نعرف له من بحوث لشؤون اللغة – عالم بأسـرارها ، خبير بمفرداتها وأساليبها ، يناقش في ضبط الألفاظ وتركيب الجمل مناقشة اللغوي البصير . وهذا ما مهد له تأدية ما يريد مـن المعـاني . كاتبـا أو متحدثا ، بلغة فصيحة وعبارة مليحة . فهـو يكتـب ويملـي ، ويحاضـر ويرتجل ، بالسهولة التي يقرأ بها ، فيندفع كالسيل الذي لا تستطيع شواطئه أن تضبط أمواجه المتدفقة . " .

ولا يستبعد الكاتب أن يكون "توفيق دياب" قد نظم الشعر في صـباه ، لما في أسلوبه من موسيقية اللفظ ، ووزن العبارة، وتقطيع الجمل ، كمـا أنه لو انصرف إلي المحاماة لكان المحامي المدرة ، لماله من ذلاقة اللسان، وسلامة اللهجة ، ولباقة الحجة ، حتى إذ لم تجد حجـة المنطـق والفكـر أسعفته حجة العاطفة والشعور . (١)

ومن مخايل نزعته الأدبية أنه لم يكن يقل شأنا في كتاباته ومقالاتـه عن الخطابة ؛ فقد وضع ذوقه الأدبي الرفيع فيما تناوله قلمه من كتابات ؛ وقد وصف "زكي المهندس" أسلوب "دياب" الأدبي في حفل التـأبين الـذي أقامه مجمع اللغة العربية له بقوله : (٢) " فكان قلمه في الكتابة ، كلسـانه في الخطابة : أسلوب عربي مبين وعبارات سليمة ، ومقتبسات تدل علـي ذوق أدبي رفيع ، وتدل كذلك علي إحاطة تامـة بـالأدب العربـي قديمـه وحديثه" .

---

(١) راجع مقدمة اللمحات ص هـ
(٢) مجلة مجمع اللغة العربية عدد ٢٤ / ٢٥٥ .

وكان من أبرز الأمثلة لانعكاس شخصية "توفيق دياب" الأدبية علـــي الصحف التي عمل بها ، والتي من أبرزها جريدته "الجهاد" اهتمامه الشديد بالأدباء والشعراء ،فقد أصدر ملحقا بمناسبة رحيل أمير الشـــعراء "أحمـــد شوقي" . نعي فيه "توفيق دياب" إلي الأمة العربية – في ١٥ أكتوبر ١٩٣٢ – مصاب الشعر والأدب في أمير الشعراء "أحمد شوقي" وكتب "توفيق دياب" مقالا كبيرا عنوانه (مات أمير الشعراء فلتبكه العربية وليبكه الإسلام).([1])

ومن ملامح شخصيته الأدبية – كذلك – أنه أفسح جريدته (الجهـــاد) لكبار الأدباء والمفكرين في عصره وعلي رأسهم " طه حســـين" و"عبـــاس محمود العقاد" و"طاهر الجبلاوي" و"محمود عزمي" وغيرهم مـــن الأدبـــاء الشبان في ذلك الوقت .

وقد استطاع "طه حسين" أن يبين السبب الذى اختير "محمد توفيـــق دياب" من أجله عضوا بمجمع اللغة العربية ، وهو حســـه الأدبـــي وذوقـــه الرفيع ، فقال في حفل استقباله عضوا بالمجمع وكان ذلك عـــام ١٩٥٤ م خلفا للمرحوم "فارس نمر" ([2]) : " إن الذين يؤرخون الأدب فيما بعد حـــين يصورون حياتنا الأدبية بعد الثورتين ([3]) لن ينســـوا "توفيـــق ديـــاب" لـــن يستطيعوا أن يهملوا اسمك بين الأسماء التي سجلت في التـــاريخ الأدبـــي لنفسها ذكرا حسنا رائعا شائعا ، فلك أسلوبك العنيف المتدفق الذي يســـبق إلي القلوب والذي يخلب الآذان والذي ينسجم فيه اللفظ مع المعني والـــذي

([1]) راجع توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ١/ ١٠٥

([2]) مجلة مجمع اللغة العربية ، ١٠/١٥١ .

([3]) لعله يقصد بالثوريين، ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢.

يصور الموسيقي اللغوية والأدبية كأروع ما تكون الموسيقي ، وحسبك هذا خالبا للشاب مستأثرا بعقولهم ثم حسبك بهذا مؤثرا في القلوب ، مفتقا للعقول ، مهذبا للأخلاق ، ممرنا للألسنة وممرنا للآذان أيضا . علمت الشباب بأدبك كيف يحبون الأدب ".

وهكذا نري – من خلال هذا الوصف – أنه اختير عضوا في مجمع الخالدين لنزعته الأدبية وذوقة الرفيع ، الذي بدأ واضحا في أسلوبه الكتابي و الخطابي ، كما بدأ واضحا – أيضا – في كتابة القيم ' اللمحات" .

ويوضح "طه حسين" طبيعة العمل الذي اختير "دياب" من أجله ، فيقول: ([1]) "أختارك زملاؤك لتشارك في إحياء اللغة والمحافظة عليها ، واختاروك بنوع خاص لتكون قدوة وأسوة للشباب في العمل ما استطاع الإنسان أن يعمل . " .

هذا وقد اعترف أقرانه ومعاصروه بفضله وجهاده الوطني وقدروه حق قدره ، فهذا واحد من أقطاب الأدب في عصره "الشيخ عبد العزيز البشري" يشير إلي شخصية "دياب: فيقول : ([2]) " ... أما بعد فالأستاذ محمد توفيق دياب مثل من الأمثلة الحية في حياة العصامة والعصامية كون نفسه بنفسه ، وأحسب أنه كون غير القليلين من أهله غير معتمد علي ثروة ولا تركة من الحياة أو النقود ، وهو من أجل هذا – وهذا ليس بالشيء القليل – جدير بالتحية والتقدير . " .

([1]) مجلة المجمع العدد السابق .

([2]) السياسة الأسبوعية عدد ٦٠ / ٥ / ٣ / ١٩٣٨ من مقالة له "في المرآة" عن توفيق دياب .

وقد أشار الشاعر "محمد توفيق علي" إلي مكانة الأديب "دياب" وواساه في محنته وسجنه فقال في قصيدة بعنوان "صاحب الجهاد" إلي المذنب البريء : ([1])

توفيق أجرَ المحسنين مضاعفٌ ∴ والصبرُ أجملُ زينة الأحرار

إن يَسْجُنوك فإنما سجَنوا العلا ∴ والمجدَ من جزعٍ مع الأشرار

لك أسوةٌ برسول ربِّك يوسف ∴ أتقي العباد وصفوةِ الأخيار

وقال عنه الكاتب "مصطفي أمين" ([2]) "كان توفيق دياب شخصية عربية ... كاتب من الطراز الأول وخطيب من الطراز الأول .. " .

ويقول عنه "عباس حافظ" رئيس " تحرير الوادي " آنذاك : ([3]) " عرفت الأستاذ دياب من ذلك الحين في خاصة نفسه وخصاله وزعامته صامتا لا يكذب ، كريما لا يضن ، بدويا، حاضر السماحة، عربيا أخاً نديا ، صاحب نزاهة ، مستقيما لا يبغى عوجا ، مفراحا علي الحالات جميعا ، مشرق الديباجة منتهجا ، زين المجالس إذا تحدث ، مليبيا داعي المروءة والواجب إذا اشتد ، ذاهبا أبدا في مقدمة النوابغ البارزين . " ويصفه السياسي الكبير "مكرم عبيد" بالحماسة قائلا : ([4])" لكل إنسان صفة روحية

([1]) ديوان توفيق ، الأعمال الكاملة المجلد الثاني ص ١٨٩ ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٨ م .

([2]) توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ٢ / ١٧٩ .

([3]) السابق ٢ / ١٩٠ .

([4]) السابق ٢/ ١٩٢ ، ١٩٣ .

غالية تميز نفسه كما أن له من ملامح وجهه أو تكوين جمسه صفة جثمانية خاصة تميز يخصه ، والصفة الغالبة في توفيق دياب هي الحماسة بحماسة ذلك الشعاع الإلهي الذي يلقيه الله في نفوس بعض الممتازين من بني الإنسان هي في الواقع الأصل في كل ابتكار في إيمان كل تضحية في كل نعمة " .

أما الكاتب "عبد الحميد الشرقاوي" فيقول عنه : (١) " كنت حريصا منذ بداية تكويني الثقافي علي قراءة جريدة الجهاد التي كان يصدرها الكاتب الكبير "محمد توفيق دياب" وهو حقيقة من عمالقة الصحافة والخطابة ، لقد أنشأ توفيق دياب مدرسة في الخطابة استمرت حتى الآن ، وكان الرئيس "جمال عبد الناصر" يقلده في خطبه ... " .

وبعد فهذه صورة تقريبية لشخصية "توفيق دياب" وصفاته وأحاسيسه و مشاعره وفنه رسمها له معاصروه وأقرانه وتلاميذه ، وكما يقول المثل الإيطالي : " إن أصدق اللوحات ترسم لعظيم هي التي يرسمها فنان كان قريبا من حياته . "

<u>وفاته</u>

ظل "دياب" شعلة متوهجه في الدفاع عن قضايا وطنه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، إلي أن لبي نداء ربه في ١٣ نوفمبر عام ١٩٦٧ م ، وقد بلغ من العمر خمسة وسبعين عاما . وقد نعته جريدة الأهرام في صدر صفحاتها في اليوم التالي أي في ١٤ نوفمبر ، حيث كتبت تقول : "توفي أمس الصحفي الكبير والخطيب المفوه "محمد توفيق دياب"

---

(١) السابق ٢ / ٢٠٤ .

عن ٧٩ عاما ، ولقد لمع اسم توفيق دياب في أواخر العشرينيات وطـوال الثلاثينيات واقترن اسمه بالجهـاد الـوطني ومكافحـة الطغيـان الملكـي والاستعمار البريطاني ولاسيما منذ تولي رئاسة تحرير جريدة "الجهاد" التي عطلت مرات عديدة بسبب ضراوة افتتاحياته في الحملة علي الإنجليز وعلي الحكومات الديكتاتورية التي تحكم مصر في تلك الفترة استنادا إلي سـلطة الملك . " .

ثم أضافت بعد أن عرضت بعضا من مراحل حياته وتعليمه في لنـدن قائلة " لقد كانت وفاة صاحب "الجهاد" ، في يوم الجهاد ([1])، لكنها لم تكـن وفاة .. لم تكن نهاية .. لم تكن خاتمة المطاف بل كانت ميلادا وبداية وبعثًا .. أليس "توفيق دياب" .. مسيرة جهـاد لا تتوقـف .. وشـعلة نضـال لا تنطفيء . " .

وقد أقام مجمع اللغة العربية حفل تأبين يوم الأربعاء الموافق ١٧ من يناير ١٩٦٨ أي بعد شهريين من وفاته تقريبـا ، ألقـي الأسـتاذ "زكـي المهندس" عضو المجمع – كلمة قال فيها : ([2]) " ...ولست أشـك فـي أن المصاب في توفيق دياب هو مصابنا جميعا ، وأن الفجيعة عامة شـاملة لا ينفرد بها أعضاء المجمع وحدهم ، ونحن إذ نبكيه اليوم لا نبكي فيه عضوا مجمعيا نشيطا فحسب ، وإنما نبكي فيه علما من أعلام الخطابة ، وركنا من

([1]) المقصود بيوم الجهاد هو يوم ١٣ نوفمبر من عام ١٩١٨ ، الذي ذهب فيه سعد زغلول بعد ٤٨ ساعة من انتصار بريطانيا علي ألمانيا في الحرب العالمية الأولي – إلي قصـر نائـب الملك البريطاني في قصر الدوبارة وقال للإنجليز : "اخرجوا من بلادنا" . فأصبح هذا اليـوم عيدا قوميا يحتفل به الشعب المصري علي مدي سنين عديدة .

([2]) مجلة المجمع عدد ٢٤ ، ٢٥٤ ، ١٩٦٩ م .

أركان النهضة الأدبية ورائدا من رواد الصحافة العربية . لقد قضي الفقيد بيننا أكثر من أربعة عشر عاما كان فيها مثال الإخلاص والوفاء لأصدقائه وزملائه ."

كما ألقى الأستاذ الشاعر عزيز أباظة كلمة بيّن فيها فضل "توفيق دياب" ومكانته وطاقاته الإنسانية الفياضة ، حيث قال : ([1]) "لقد كان آخر من فقدنا من زملائنا وهم من أعلام الجيل ومعلميه هذا الرجل الكامل الذي نجتمع اليوم نذكره ونرثيه . أما ذكره فجامع في نفوسنا بين الأسى والإكبار، وأما ذكراه فباقية ما بقيت للجهود الخالصة والجهاد الصادق أثار وأخطار . إن "توفيق دياب" لم يكن غير طاقات إنسانية تفيض جداولها الثرة بزاخر من القيم الفكرية والوضاءة الخلقية .

لا تحول نضرتها ولا تبلي جدتها ، مهما يتطاول الزمن ومهما يتلامح في عالم الأدب والصحافة ألوان من المذاهب ومستحدث من المناهج . " .

ثم ختم كلمته بأبيات من الشعر للشاعر "الشريف الرضي" يقول فيها:

أحبابنا الأدنين كم ألقي بكم ∴ داءً يمض فلا أداوي الداء
أحبابنا إخاءكم الممات وغيركم ∴ جربتهم فثكلتهم أحياء
إلا يكن جسدي أصيب فإنني ∴ فرقته فدفنته أعضاء

وفي الحفل نفسه ألقي نجله "كمال دياب" كلمة بيّن فيها "توفيق دياب" الإنسان وكيف كانت علاقته بالملأ الأعلى لا تختلف عن علاقته بأسرته ،

([1]) السابق العدد نفسه ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

فقال : (١) "ولم يكن فقيدنا في حياته الخاصة مختلفا عنه حياته العامة ، ولم يكن في علاقته بالدنيا والناس مختلفا عنه في علاقته بالملأ العلوي وبالله . كان مزاجا فكريا . يجمع بين حقائق الدنيا ومادتها وأضواء السماء وروحيتها ، في وحدة متزنة مؤتلفة أدركها معظم أصدقائه وعارفيه وأهله وأقرب الناس منه . " .

وهكذا نري أن وفاة "توفيق دياب" لم تكن أمرا هيناً ، بل كانت حدثاً جللا بقدر ما كان له من مكانة اجتماعية وأدبية في نفوس كثير من أبناء المجتمع ممن عرفوا قدره ومكانته .

---

(١) السابق ص ٢٨٥ .

﴿الفصل الثاني﴾

﴿ نثر توفيق دياب موضوعاته وقضاياه ﴾

توطئة

معلوم أن المبدع أو الأديب لا ينشيء إبداعه أو فنه من الفراغ ولا يبدأ من العدم ، ولا تنبعث قدراته الإبداعية فجأة وبدون مقدمات . بل إن المبدع أو الأديب يمر بسلسلة طويلة من التدريب والمعاناة ، وهو في تلك المرحلة الشاقة يكون واعيا بأن الوصول إلي التجويد لا بد أن يمر بدروب المشقة .

وهذا يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن الإبداع الفني ليس وحيا أو إلهاما علي طول الخط ، وإنما هناك دروب يمضي عليها المبدع سواء في رحلة تكوينه أو في أثناء قيامه بعملية الإبداع ؛ حيث إن أنهار الخبرة متجددة بما تحمله من معارف جديدة وتيارات مبتكرة ، وهذا في حد ذاته مما يضمن ألوانا مختلفة من العائد الإبداعي لدي المبدع .

ومن ثم فإنه من الضروري الاقتناع بأن العادات التي يكونها في بداية حياته تظل إلي حد كبير مسئولة لسنوات طويلة تالية عن توجيه ميوله واهتماماته بل تنمية قدراته العقلية وعملياته المعرفية ، كما أنها تظل مسئولة عن الأشكال وعن القوالب التي يشكل بها خبراته ويصب فيها أفكاره وإبداعاته

ومن ثم يمكن أن نشير إلي العوامل المحركة لعملية الإبداع ، ومن أهمها :

١ – الجانب الدافعي وما يتعلق به من عوامل نفسية وجدانيـــة ؛ ذلـــك أن عملية الإبداع الفني تبدأ بفكرة وبدافع يدفع الأديب إلي العمل لتحقيق هذه الفكرة ، والدافع نفسه مسألة متعلقة بالوجدان ، تلح علي نفـــس الأديب ، ولا تتركه إلا وقد استجاب لتحقيق تلك الحاجـــة ، وتختلـــف درجة الإلحاح من شخص إلي آخر ، بل لدي نفـــس الشـــخص مـــن موقف إلي موقف ، وبعبارة أخري أن الدافع النفسي هو العامل الأول في عملية الإبداع ، ولعل أهم ما يتوافر في هذا الدافع درجة التـــوتر النفسي لدي الأديب أو الفنان ، بمعني أنه إذا ازداد التوتر عن درجـــة معينة أو قل عن درجة بذاتها يمكن أن تتوقف التجربـــة أو العمليـــة الإبداعية .

٢ – البعد الاجتماعي ، ويتكون هذا العامل من عدة روافد ، مـــن أهمهـــا وأبرزها عوامل التنشئة الاجتماعية ، بما تتضمنه من توصيل عادات معينة ، وثقافة خاصة ، تكون مسئولة عن الدور الاجتمـــاعي الـــذي يعهد إلي الإنسان القيام به . ومن هذه الروافـــد – كـــذلك – انتمـــاء الإنسان إلي أسرة معينة أو طبقة اجتماعية متميزة يمكن أن يكون لكل ذلك أثر في تشكيل سلوكه واتجاهه الفني ؛ لذا فان الأديب من أكثـــر الناس إحساسا بقضايا مجتمعه وهو يُعد نفسه – بحكم أنه يملـــك أداة التعبير – مسئولا إلي درجة كبيرة عن عرض قضايا هذا المجتمـــع ، وفنهُ هو أداته نحو القيام بهذا الدور ، ومعاونة الناس علـــي إدراك الواقع الاجتماعي وتغييره .

٣ – البعد الذهنى والمعرفى ، وهو المسئول إلى حد كبير عن تكوين أفكار الكاتب وتشكيلها وتنميتها، بحيث تصبح أكثر صلابة وقدرة على المضي بحياتها الخاصة وشخصيتها المستقلة ، وبقدر الكفاءة العقلية والذهنية للكاتب تكون كفاءة المضمون والأفكار وقدرة الكاتب على الإمساك بخيوط العمل والتجربة . (١)

٤ – الحس الجمالي ، وهو المسئول عن الجانب الشكلى في العمل الفني ؛ حيث إن القيم الفنية التي يتبناها الفنان تفرض نفسها علي العمل ، وقد يحدث تعارض بين قيمة يتبناها الأديب وقيمة اجتماعية ، فيجد الأديب نفسه مضطرا للتضحية بإحدى القيمتين ، ولا ينحسم الأمر إلا من خلال جهد مكثف يحاول الفنان من خلاله تجاوز الحدود الضيقة لهذا التعارض ، ويتمثل هذا الجهد في القدرة علي التشكيل والتنويع في إطار جمالي مبتكر ، يحفظ التوازن بين القيم الموضوعية المختلفة، وهذا التنويع والقدرة علي الابتكار وتلك المرونة ، مما يتمتع به الأديب دون غيره ، مما يجعل أعماله مليئة بالحيوية والدفء والخصوبة . (٢) وهذا لا يتم إلا بالإطلاع الدائم والتزود المستمر من أنهار الخبرة وتنشيط الخيال .

نخلص مما سبق إلى أن الأديب لا يقدم علي الكتابة والإبداع إلا من خلال دوافع نفسية تسهم في معالجة القضايا التي يتبناها معالجة صادقة ،

---

(١)انظر الخلق الفني ، د / مصرى عبد الحميد حنورة – سلسلة كتابك ، دار المعارف ١٩٧٧ ، ص ٦٦ .

(٢)انظر السابق ٦٧ .

تجمع بين جمال الشكل وطرافة المضمون ، وهذا ما سوف نـــراه ونلمســـه عند الكاتب "محمد توفيق دياب" في كيفيـــة تناولـــه للقضـــايا الاجتماعيـــة والسياسية والثقافية ، في إطار فني يجمع بين شرف الموضـــوع وجمـــال الأسلوب .

أولا : القضايا الاجتماعية .

كان "توفيق دياب" كاتبا اجتماعيا من الطراز الأول ، تناول العديد من المشكلات الاجتماعية التي تمس المجتمع عن قرب وتمـــس حيـــاة النـــاس وعاداتهم وتقاليدهم تناولا ينم عن معايشـــة حقيقيـــة للواقـــع وإشـــكاليات المجتمع المصري آنذاك .

ومن القضايا الاجتماعية التـــي عالجهـــا "ديـــاب" بحســـه الأدبـــي ، ومشاعره الرقيقة ، وأسلوبه الرائع ما يأتي :

(أ) القريه المصرية ومشاكلها .

وجه "توفيق دياب" نظره الثاقب نحو القرية المصرية ، وسخر قلمـــه لرصد مشكلاتها ، إيمانا منه بأن القرية المصرية هي الشـــريان الحيـــوى والاقتصادى لمصر آنذاك ، وعلي الرغم من ذلك لم تحظ القرية المصـــرية بالاهتمام والرعاية . فعاش أهلها في فقر مدقع وجهـــل مطبـــق وأمـــراض فتاكة ، فضلا عن تسلط طبقة كبار الإقطاعيين الانتهاز بين الذين حرصـــوا علي امتصاص دماء الفلاح المصري وحرمانه من ثمار جهده وكده ؛ ممـــا أدي إلي سوء حالته في كل مناحيها . فها هو ذا "دياب" يصور حياة الفلاح تصويرا دقيقا من واقع الحياة الملموس الذي لا مرية فيه ولا جدال ، فيكتب مقالا بعنوان "ماذا يشربون" أظهر فيه معاناة الفلاح في طعامـــه وشـــرابه

فيقول : ([1]) " إنهم يشربون كسائر الأحياء . لكنهم لا يشـــربون مـــاء ولا يشربون "شايا" ولا يشربون نبيـــذا ولا جعـــة ([2]) ولا "وســـكي" إذا فمـــاذا يشربون ؟ يشربون طينا مذابا في ماء ؟ أولئـــك هـــم أهـــل القـــرى فـــي مصر .... لكن الشراب لن تسميه ماء ، فعهدك أيها الحضري بالماء أنـــه مادة شفافة لا لون لها . أما ذلك الذي يقدم إليك في القريـــة فلـــيس مـــن الشفافة في شيء بل هو مادة طينية اللون بين الحمراء والسوداء ولاسيما أيام الفيضان " .

وبعد أن صور لنا الكاتب طبيعة مياه الشرب في القرى المصـــرية ، والتي هي سبب الحياة ، حاول بالدليل العلمي بيان أن هذا الماء سبب فـــي المرض والوفاة ، فيقول : ([3])" والعلم قد وصل إلي نتيجتين مختلفتين فـــي أمر ذلك المزيج : أحداهما لأنه ينفع الأرض التي يرويها نفعا عظيما ، ذلك أن الطين الشائع فيه يغذيها فيزكو زرعها . ويزداد نماءً وإثماراً . والثانية هي أن ذلك المزيج يؤذي الإنسان الذي يشر به أبلغ الأذى : ذلك بأن هذا الطين عينه بيئة صالحة لمختلف الجراثيم ، ثم هو مادة قابلة للتحجر ، فإذا تحجرت في بعض الأوعية البدنية ، فيا ويل صاحبها من الآلام ويا ويلـــه من مدية الجراح . " .

وفي أسلوب توبيخي يلقي الكاتب باللوم علي الحكومـــة لتقصـــيرها وعدم اهتمامها بهذا الأمر الخطير : " إذن للأرض أن ترتوي بذلك المزيج ،

([1]) اللمحات ١٤٦ من مقال "ماذا يشربون" نشر ١٩٢٣ .

([2]) الجعة : نبيذ الشعير .

([3]) اللمحات ١٤٦ – ١٤٧ .

ولكن ما بالنا نجعله ريا للآدميين ؟ هب كثيرا منهم سذجا لا يدركون أذاه – فهلا تحس الحكومة شيئا من وخر الضمير . " .

والكاتب لا يفتأ يصور حالة الفلاح المصري وما أصابه من تدهور صحي ومادي ، وهو مورد الأمة وشريانها الحيوي ، فيوجه سهامه إلي الحكومة في أسلوب قوي رصين قائم علي الحجة والبرهان ، والقياس والموازنة ، ففى مقاله (الأخلاق والمجتمع) يقول : ([1]) " هذا الجيش الكثيف من عمال الزراعة ، قبل غيره وفوق غيره عماد الحياة في هذه الديار . كلنا يعلم أن النيل المفضال إذا عجز عن فضله عاما هلكت مصر من العطش . وكلنا يعلم أن أرضنا المعطاءة إذا عجزت عن عطائها عاما هلكت مصر من المجاعة . ولكن يظهر أن أكثرنا يجهل أن عمال الزراعة هؤلاء إذا عجزوا عن العمل عاما فلن يغنينا عامئذ نيلنا الفياض . ولن يغنينا عامئذ وادينا الخصيب . إذ فضل النيل وفضل الوادى كليهما رهن بفضل هذا العامل المظلوم .بأيدي أولئك العمال تدار القنوات والجداول علي الرياض والحقول ، كما تدار كؤوس الرحيق علي الشاربين ، وبأيديهم يتعهدون الزرع والضرع كما تتعهد الأم طفلها الرضيع . هم وسطاء الله بين أرضه وبين المرزوقين الطاعمين من خيراته . " .

وهكذا نري الكاتب وقد أظهر دور الفلاح في المجتمع وقدره ، وما يبذله من جهد وعرق في سبيل تقدم المجتمع وسد حاجاته ، ثم أخذ يتساءل كيف يكون الفلاح بهذا القدر وتلك المنزلة ويهمش ؟ وكيف يكون طاهي الطبيعة ويحرم من خيراتها ؟ وكيف يبذل صحته وجهده ولا يراعي صحيا ،

([1])السابق ٥٠ من محاضرة بعنوان "الأخلاق والمجتمع" ألقيت فى مارس ١٩٤١ .

وبأسلوب قوي رصين ينضح بعاطفة جياشة وانفعال صادق يعبر قائلا متسائلا : (١) " أفليس لعامل الرزق أن يرتزق ؟ أفليس لوسيط الخير الإلهي أن يعيش من خير الله ؟ عمال الزراعة طهاة الطبيعة . فكيف يجوع الطاهي ؟ هم مفاتيح كنوز مصر . فكيف تبخل مصر عليهم بسد الرمق ؟ ".

بهذه الأسئلة ، وتلك الاستفهامات التي تحمل في طياتها التوبيخ والتقريع لمن ملكوا زمام الأمور في البلاد وتجاهلوا حق هذا المسكين الذي يعيش من كسبه ملايين من الأفواه الآكلة . عبر الكاتب عما يجيش في صدره ويختلج في نفسه تجاه هذا العامل المكدود .

ومن ثم لا يجد الكاتب مفرا من إعلان تلك الصرخة المدوية المنبعثة من نفس ثائرة ، وروح متوثبة ، ونزعة إنسانية عالية ، فيقول : " أنقذوا هذا البطل الوفي الصابر المتواضع . أنقذوه من براثن الفاقة والذل ، أنقذوه، بمقاومة الجشع ، أنقذوه بقوة القانون إن لم تساعفنا قوة الأخلاق".

ولا يخفي ما في الأسلوب من قوة ونبرة عالية ، دلت علي صدق التجربة وحرارة العاطفة ، وقد ساعد علي علو تلك النبرة فعل الأمر (أنقذوه) المكرر أربع مرات لعله يجد آذانا صاغية وقلوبا رحيمة .

ولم يكتف " توفيق دياب" بهذه الصرخة التي نادى من خلالها برعاية الفلاح وإنقاذه من براثن الفقر والمرض ، بل راح يطالب بإدخال المرافق العامة إلي القرى مثل الكهرباء التى تعود القرية بدونها مدافن موحشة ، ويحسد "الكاتب" حالة القرية وقد عمها الظلام لكن في أسلوب طريف تغلب

---

(١) السابق ٥٠ .

عليه السخرية فيقول : (١) " القرية المصرية – عدا الليالي المقمرة – فى ظلام حالك – نور المسارج محبوس بين جدران الدور والأكـواخ ، أمـا الأزقة وما بين المنازل وما حولها فسواد كناحية الغراب . وما لم تكن حديد البصر فأنت بحاجة إلى تلمس الطريق بعصاك أو يديك . وليس يأمن المدلج أن تغوص قدمه فى أرواث لا يراها ، أو أن يصطدم رأسه بخشبة ناتئة من جدار . وقد تسمع وقع أقدام على مقربة منك وترى أشباحاً آدميـة بـين يديك ، فلا تتبين الوجوه ولا تميز الأشخاص حتى تقول لهم أو يقولوا لك " سلاماً " فتعرفهم بأصواتهم إن كنت من خلطائهم ،و إلا فأشباح ، أو خفير يصيح بك وهو على قيد رمح منك : من أنت أيها القادم ؟ " أنا " "أنت من" " أنا محمد " ، " ومن محمد " ، " محمد أبو خليل .شيىء بـارد صـحيح ." " لا مؤاخذة يا أبو خليل الواحد معذور ؟ عينـى كانـت عسـلت حبتـين ، وصحيت مدروخ ، والدنيا زى الكحل ، وحسبتك دورية ".

وبعد أن صور الكاتب ظلام القرية بهـذا الأسـلوب السـاخر ، راح يوضح أثر هذا الظلام على أهل القرية جميعاً من كبار وصغار ، وما يتركه فى نفوسهم من رهبة وخوف وفزع ، وما يخلقه فى أوهـام النـاس مـن أهوال ، وبخاصة الأطفال ، فيكبرون وقد ملأ الخوف والفزع قلوبهم ، وملك عليهم أحاسيسهم ومشاعرهم . (٢)

والملحوظ أن الكاتب متأثر بما ترسب فى أعماقه منذ كان صغيراً فى قريته ، ورأى كيف كان يعيش أهل القرية فى هذا الظلام الدامس ، فعلـق

---

(١) اللمحات ١٤٤ من مقال بعنوان "القريةَ فى ظلام" نشر ١٩٢٣ .
(٢) انظر السابق ١٤٥ .

ذلك فى ذهنه وخلده حتى بعد إنتقاله إلى المدينة،وأصدق التجارب وأكثرها تأثيراً تلك التى يعانيها الإنسان وتترسب فى أعماقه ، فإذا وجدت ما يحركها خرجت هادفة معبرة .

وهكذا استطاع " دياب " أن يصور بقلمه جانباً وقضية مـن القضـايا الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع المصرى آنذاك ، وهـى قضـية الفلاح وما كان يعانيه من فقر وحرمان ومرض وجهـل ،

واستعباد من أصحاب رؤس الأموال والإقطاعيين ، وجاء كل ذلك فى أسلوب أدبى ينضح بصدق التجربة وحرارة العاطفة ، اللتين تكفلان للعمـل الأدبى التأثير والخلود.

ب – المناداة بإصلاح التعليم :

كان الاحتلال الإنجليزى فى مصر حريصـا الا ينـال التعلـيم مـن الإهتمام والرعاية شيئاً ومن ثم ظل التعليم متأخراً ، وتـدهورت أحوالـه ، وتغيرت نفوس أبنائه ، فضلاً عن الحالة السياسية والتى أدت دوراً مؤثراً فى تشكيل المجتمع وتأخر التعليم ، وبخاصة بعد الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٨) ، فقد غيرت حال الناس خاصة طلاب العلـم ، فانتـابهم القلـق والخوف بل والكسل ، مما دعا " توفيق دياب " لأن يتناول هذه القضية من عدة محاور .

المحور الأول :

بيان حال التعليم وما وصل إليه من تدهور وتأخر ، وقد ارتكـز فـى هذا المحور على الموازنة بين طالب العلم فى السابق وما وصل إليه الآن،

فيقول مصوراً ما وصل إليه العلم وطلابه(١) " مواطن الألم فى بلادنا كثيرة. أدر ناظريك حيث شئت ، فهل ترى إلا متبرماً ضجراً ؟ لماذا؟ لأن المصريين طال عليهم عهد من الحكم هو إلى القلق والفوضى أدنى منه إلى الطمأنينة والنظام ".

هذه هى الحالة العامة فى مصر – آنذاك – استطاع الكاتب أن يجملها فى هذه الكلمات المعبرة الواضحة ، التى صورت المجتمع المصرى فى ظل حكم قلق وغير مستقر مما أثر على كل مناحى الحياة ، ومنهـا التعلـيم ، وعنه وعن طلابه يقول الكاتب : " كان طالب العلم فيمـا مضـى موفـور النشاط ، عاكفاً على الدرس والتحصيل ، حتى إذا انفسحت له ميادين الحياة بعد تمام الدراسة ، وكان به نزوع إلى الأعمال العامـة ، ولـج أبوابهـا مستكمل العدة ، فإذا هو رجل ناضج فى عداد الرجال" .

أما اليوم فشأن الطلاب غير هذا ، وعذرهم واضـح – فـإن الرجـة العنيفة التى أصابت مصر على أثر إعلان الحرب الكبرى عام (سنة ١٩١٤) لم تدع قلبا مصريا إلا تركت فيه أثراً عميقـاً – فالنسـاء فـى الخـدور ، والشيوخ على أبواب الآخرة ، والشباب فى المدارس وفى غير المدارس ، وفى أكبر المدن وفى أصغر القرى ، كل أولئك قد شملهم تيار عنيـف مـن كهرباء الهزة القومية ، لم تدع الطالب طالبا فحسب ، ولا المعلـم معلمـا فحسب ، ولا الموظف موظفاً فحسب ، بل أصبح كل مصرى مهما تكن سنه ومهما تكن صناعته ذا قلبين ، أحدهما متجه إلى السياسة ، والآخر متجـه إلى عمله ".

---

(١) اللمحات ١٦١ من مقال بعنوان "البرلمان المأمول" نشر ١٩٢٣ .

وهكذا يطلعنا الكاتب على الصورة الحقيقية للمجتمع المصرى وقتئذ، وما أصاب الناس من تشتت ، وخاصة طلاب العلم فى المدن والقرى ، فلم يعودوا حريصين على تحصيل العلم ، وكذا المعلم . تغيرت الحال وتبدلت ، لم يعد الطالب طالبا ولا المعلم معلما ، وإنما صاروا أشباحاً ممسوخة لا يعرفون هدفاً ولا طريقا.

وفى نهاية هذا المحور نستطيع أن نضع أيدينا على نتيجتين اثنتين، استطاع الكاتب أن يصل بهما إلى أذهان وقلوب قرائه وهما : -

الأولى : أن السياسة بصفة عامة تعد عاملاً من عوامل نهضة المجتمع أو تأخره فى كل المجالات، وأن التعليم مرتبط بها ارتباطا وثيقا .

الثانية : أن التعليم هو أساس نهضة الأمة (أى أمة) وتقدمها ورقيها .

المحور الثانى : مفهوم التعليم ومعناه .

ومن خلال هذا المحور استطاع الكاتب أن يقدم للقارىء ولطالب العلم وللمعلم مفهوماً صحيحاً للتعليم ،مفاده : أن الشهادة ليست فى كل الأحوال دليلاً على العلم ، وأن العالم الحقيقى من ينال الشهادة عفواً فى طريق العلم ، لا من ينال العلم عفواً فى طريق الشهادة ، وتتضح هذه الفكرة من خلال مقالته الرائعة " الشهادة الدراسية والرجل " وفيها يبين أن الرجل لا يكون بالشهادة مهما كانت عالية أو متوسطة ، وإنما بما حصل من علم ، وبما برع فيه من فكر . ([1])

([1]) انظر المقالة فى اللمحات ١٣٨ نشر ١٩١٢ .

هذا هو مفهوم العلم فى فكر وتصور الكاتب ، ومن ثم جاءت دعوته شباب مصر بأن يدخلوا الجامعات فى كل مكان فى العالم شرقه وغربه على هـذا الأساس ولا أساس غيره وهو تحصيل العلم النـافع المتـوج بالشـهادات الكبرى ، وعلى أن تكون الشهادة وسـيلة لا غايـة ، وعـن ذلـك يعبـر قائلا : (١) "ادخلوا الجامعات فى الشرق والغرب يـا بنـى مصـر أفواجـا أفواجا، وأحرزوا شهاداتها الكبرى كل عام زرافات زرافات – فما أقصد أن ألويكم عن الصراط المألوف صراط الذين يطلبون العلم فـى دور العلـم ، ويأخذون الحكمة من معاهد الحكمة – لكن مع ذلك أناشـدكم أن لا تقفـوا بآمالكم ولا مطامحكم عند هذه الشهادة . أناشدكم الله أن تنـالوا الشـهادة عفوا فى طريق طلب العلم – لا أن تنالوا العلم عفواً فـى طريـق طلـب الشهادة ".

وهكذا يضع الكاتب مفهوماً للعلم ، ويرسم الطريق الصحيح لطلابـه، الذى به يأخذون العلم من مظانه والحكمة من معاهدها .

كما نلحظ هذا الأسلوب الأدبى القائم على الحث والحض والتشـجيع والمناشدة والطلب ، وفى هذا دلالة على صدق وحرارة العاطفة ، والغيـرة على العلم والعلماء .

المحور الثالث : العلم وسيلة التقدم والرقى .

وفى هذا المحور يحاول الكاتب إذكاء روح العلم فى نفـوس أبنـاء مصر ، وإبراز أن العلم وسيلة التقدم والرقى ، كما أنه يبين – أيضـا – أن العلم ليس محو الأمية وإنما هو البحث والتنقيب فى كـل مسـائل العلـم

---

(١) اللمحات ١٣٩ : ١٤٠.

العلم ليس محو الأمية وإنما هو البحث والتنقيب فى كل مسائل العلم وفروعه الحديثة ، وعدم تخلف علمائنا عن نظرائهم فى أوربا وأمريكا ، وعدم نقلها نقل تقليد لا نقل تجديد .

وفى أسلوب تغلب عليه الحماسة يعبر عن ذلك فى مقالاته الرائعة " الوصايا العشر للشباب " فيقول: (١) " وإنما يبلغ الشباب ما نريده من قوة النفس وكمال النضج ، يوم يغار على نصيب مصر من علوم العصر الحديث، غيرته المحمودة على نصيبها من السيادة والحرية . ويوم ينادى بجلاء الجهل الممقوت نداءنا جميعاً بجلاء الاحتلال الممقوت . وما أريد بالجهل مجرد جهل القراءة والكتابة ، وإنما أريد تخلف علمائنا فى كل فرع من فروع العلم الحديث ، الذى يظفر فى كل ساعة طفرة ، وعن نظرائهم فى أوربا وأمريكا . فها نحن أولاء نسمع كل يوم بكشف خطير لسر من أسرار الطبيعة ، أو عناصر المادة . وقصارى أهل التخصص من رجالنا أن يسمعوا بها كما نسمع ، أو ينقلونها إذا استطاعوا نقل تقليد لا نقل تجديد . فهل يطمح شبابنا من طلاب العلوم على اختلافها إلى أن يكونوا فى غدهم طلائع بين الباحثين الكاشفين ، لا مجرد ذيول تابعين ".

وهنا نلحظ أن الكاتب يركز على أمرين اثنين هما :

الأول : هو أن العلم أساس التقدم والرقى ؛ فالأمة التى لا تملك عقولاً مفكرة مبدعة تكون متخلفة عن ركب الأمم ، وارتقاء سلم الحضارة والمجد.

---

(١) السابق ٢٠٩ من مقال بعنوان "الوصايا العشر للشباب" نشر ١٩٤٦ .

الثانى : أن التعليم أو العلم ليس معناه القراءة والكتابة والتدوين فحسب ، وإنما العلم هو الانفتاح على كل جديد فى أى مكان ، ومحاولة الإفادة منه فى كل المجالات الحديثة ، حتى لا تكون الأمة عالة على غيرها فى التفكير والتقدم العلمى والحضارى .

وهذه بلا شك نزعة إنسانية تكشف عن وظيفة الأدب ودوره فى توجيه الأمة لما فيه تقدمها ورقيها . (١)

(جـ) قضية المرأة المصرية :

من القضايا الاجتماعية التى تصارعت حولها آراء المفكرين والأدباء قضية المرأة ، وما كانت تحمله فى طياتها من الدعوة إلى سفور المرأة ، وإعطائها حريتها ، والمطالبة بتعليمها والاهتمام بدورها فى المجتمع ، وكان مرجع ذلك كله الدعوة التى أطلقها "قاسم أمين " مطالبا فيها بتحرير المرأة المصرية ، أسوة بالحضارة الغربية وتقليداً لها . (٢)

هذا بالإضافة إلى تطور الأمور تطوراً سريعاً ، واندفاع الناس لا إلى دعوة قاسم أمين فحسب، بل إلى ما وراءها فى سرعة غير منتظرة ، فقد خلعت المرأة النقاب ثم لم تلبث أن نبذت المعطف وخرجت بالثياب الملونة، ثم أخذ المقص يتحيف هذه الثياب فى الذيول والأكمام وفى

---

(١) انظر حديثه عن المدارس ودورها فى تربية الأخلاق ، وتوسيع التجارب ، وبث روح التعاون ومعرفة الحقوق والواجبات فى محاضرته التى ألقاها فى نادى المعلمين العليا سنة ١٩٢٥ ، اللمحات صفحة ١٨٦ :١٩٧.

(٢) ظهرت دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة المصرية من خلال كتابيه : تحرير المرأة والمرأة الجديدة وكان ذلك فى أوائل القرن العشرين .

الجيوب، ولم يزل يجور عليها فضيقها على صاحبتها حتى أصبحت كبعض جلدها ، ثم إنها تجاوزت ذلك كله إلى الظهور على شـواطىء البحـر فـى المصايف بما لا يكاد يستر شيئـا. (١)

فضلا عن اقتحامها الجامعة ، واختلاطها مع الرجال فى شتى الأعمال فى المصانع والمتاجر ، واشتراكها فى القضـايا الاجتماعيـة والوطنيـة ، وتأسيسها الجماعات ، وإقامتها الحفلات والندوات ، وكان على رأس تلـك الحركة النسوية آنذاك السيده " هدى شعراوى " .

هذه هى الصورة العامة التى كانت عليها المرأة فـى بدايـة القـرن العشرين ، وقد دعت هذه الحالة الأدباء والشـعراء والمفكـرين للوقـوف أمامها ورصدها وتحليلها ، وكان " ديـاب " واحـداً مـن أولئـك الأدبـاء والمفكرين ، فتناول القضية بعقل ثاقب وحس أدبى مرهف ، وذلك من خلال مقاله " معنى حرية المرأة " تكلم فيه عما للمرأة وعما عليها . وبيّن مفهوم الحرية التى تطلبها المرأة ، وجاء ذلك بأسلوب أدبى هادىء يعلى فيه من قدر المرأة المصرية المستنيرة فيقول : (٢) "صحت عزيمة المرأة المصرية على أن تخرج من الظلمات إلى النور ، فقد طال احتباسها بـين الجـدران كأنها قطعة من الأثاث أو أقل قيمة ، وطال حرمانها من أشعة الشمس تبعث فيها الحياة ، ومن شذى الهواء الطلق تستروح منه أنفاسـاً مجـددة مـن العافية والهمة . إنها تستدير ظلام الأمس لستقبل ضياء الغد . وقد أخـذت المرأة المصرية اليوم تتلمس الطريق إلى الحياة الجديدة ."

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية : محمد محمد حسين جـ٢/٢٣٧.

(٢) اللمحات ١٣٥ من مقال بعنوان "معنى حرية المرأة" نشر ١٩٢٧ .

هذه مقدمة المقالة ، ويفهم منها أنه يدعو لخروج المرأة وتحررها ، لكنه يريد حرية للمرأة تعلى من قدرها وتسمو بروحها ، وتشعرها بأنوثتها، لا حرية تحرير الغرائز الدنيا ، وابتذال المرأة وامتهانها وجعلها أداة للمتعة والتسلى ؛ لذا يحاول الكاتب إظهار رأيه ومفهومه للحرية التي تطلبها المرأة وذلك من خلال حديثة الذي يوضح طبيعة المرأة المصرية بصفة خاصة و الشرقية بصفة عامة ، وفهمه إياها ، ومعرفته بمطالبها ، وقد استطاع الكاتب أن يسوق هذا الإحساس في أسلوب يغلب عليه ترغيب المرأة في معرفة قدرها ومنزلتها وعلو مكانتها ، فيقول: ([1]) " تؤمن المرأة المستنيرة بأنها روح إنسانية قبلها أنثي وقبلها شرقية ، وبأنه إذا اختص الرجال بشيء قد لا يعني النساء ، وإذا اختص النساء بشيء قد لا يعني الرجال ، فأنه ثمة ميدانا مشتركا

هو فوق الذكورة والأنوثة – ذلك ميدان الثقافة النقية والخدمة الكريمة للمجتمع بأقصى ما يستطيع الرجل وأقصي ما تستطيعه المرأة . " .

وهو هنا يلمح إلي طبيعة المرأة الشرقية ، وما ينبغي أن تتحلي به من قيم وآداب ، وحرص علي مجتمعها ، ولا يمكن أن تكون كذلك إلا بخوض ميدان الثقافة النقية التي تقودها إلي خدمة المجتمع بأقصى ما تستطيع .

ثم يرى أن الحرية التي يطالب بها بعض الدعاة ، وتطالب بها المرأة ينبغي أن تقيد (بالفاضلة) ولا سيما إذا أريد بها حرية المرأة ([2]) .

([1])السابق ١٣٥ .

([2])انظر السابق ١٣٥ .

ويأبى الكاتب إلا أن يوضح مفهوم الحرية للمرأة ، وبخاصة للـــذين يتصورون أن الحرية هي تحرير الغرائز الدنيا من عقالها ، حتى يصبح أمر الأخلاق فوضي لا ضابط لها . وبأسلوب أدبي واضـــح يعبـــر عـــن ذلـــك قائلا : ([1]) " يسيء كثير من الناس فهم الحرية ، ولاسيما حرية المـــرأة ، فيحسبونها تحرير الغرائز الدنيا من عقالها ، فيصبح أمر الآداب والأخـــلاق فوضى لا ضابط لها . لو كان هذا معني الحرية لكان من ينادي بها ويدعو إليها ، مناديا بتهديم أركان الحضارة المثلي ".

" إن المرأة المصرية حماها الله ، وحمتها الكرامة ، تطلـــب الحريـــة لعقلها المفكر ، وعواطفها متدفقة بأنبل المشاعر ، المتحفزة لأبر الأعمال ، وتحس أن عليها لقومها ولنفسها فروضا يجب أن تؤديها علي أكرم وجـــه مستطاع . تلك هي الحرية التي تريدها المرأة المصرية – حريـــة العقـــول المثقفة والعواطف المهذبة ، ... إذ المرأة المصرية علـــي يقـــين مـــن أن للنفس البشرية جانبين أسمي وأدني ، وهي علي يقين أن رقيها المنشود ، إنما هو تقييد الجانب الأدنى بالقيود الكريمة ، وإطـــلاق الجانـــب الأســـمى بأوسع معاني الإطلاق . " .

وهكذا يضع الكاتب المفهوم الصحيح لحرية المرأة المصرية خاصـــة والشرقية عامة ، ومن ثم يري أنه علي الرجال أن يكونوا عونـــا للنســـاء علي هذا الحق العظيم الذي لا يختص به جنس دون جنس ألا وهو حريـــة العقول المثقفة والعواطف المهذبة .

([1])السابق ١٣٥ – ١٣٦ .

ويحاول الكاتب – بعد ذلك – تصحيح مفهوم الحرية التي تطلبها المرأة المصرية عند بعض الذين يرون أن مفهوم الحرية هو خروج المرأة سافرة ، وتبذلها في المظاهر والأزياء ، وحريتها في المخالطة للإغواء والإغراء ، ويري أن المرأة المصرية أعز من هذا وأجل ، والحرية التي تريدها هي الحرية الفاضلة ، الحرية التي تمنحها الاشتراك في الخير العام، وتجعلها تسير في الطريق إذا دعت الحاجة ، وتسمح لها بحضور المجامع، فتلقي من الرجال ألسنة ناطقة بإجلالها ، وقلوبا خافقة بإعلاء مكانها كما يعلي الأخ مكان أخته والوالد مكان ابنته ، والولد مكان أمه (١) .

ولم يكتف الكاتب بهذا التوضيح لهذه القضية ، بل ذهب إلي أبعد من ذلك ؛ فبين أن عظمة الأمم لا تكمن في مظاهر الأبهة والمجد التي تري في القصور والقلاع ، وإنما تكون بين جدران البيوت ؛ حيث الأم المربية ، التي تغرس أول بذور العظمة في نفوس أبنائها . وهذا بلا شك تأكيد علي دور المرأة في المجتمع وفي الحياة كلها ؛ إذ إنها المدرسة الأولي لتربية النشء .

لنستنتج مما سبق أن الكاتب ركز علي أمرين اثنين :

الأول : بيان حدود الحرية التي دعا إليها دعاة حرية المرأة وسفورها وإظهار المفهوم الصحيح لكل من وقف في وجه الدعوة ، دون أن يعرف حدودها ومفهومها .

---

(١) انظر اللمحات ١٣٦ .

الثاني : بيان دور المرأة في المجتمع ، وأنها رمز تقدمه ورقيه لو أنها قامت بهذا الدور ، وهو تربية النشء علي الفضيلة والأخلاق الكريمة ليكون عدة المجتمع ورمز تقدمه ورقيه .

وقد جاء كل ذلك بأسلوب أدبي ، استخدم فيه الكاتب طريقة الحث والحض والترغيب كما استخدم أساليب الأمر والنهى ، والدلائل والبراهين علي فكرته مما دل علي ثقافة الكاتب وتمكنه من ناصية القول والكتابة .

وعلي أية حال فان هذه القضية ستظل في كل زمان ومكان ما دامت المرأة موجودة ، لكن ينبغي أن نشير إلي أن رقي أي مجتمع يقاس – دائما – بمدي تقديره للمرأة واستجابته لمنحها حقوقها كاملة ، بوصفها الشريكة الأولي للرجل ، وساعده الأيمن في تحمل أعباء الحياة ، فالمرأة هي الزوجة التي تدير شؤون الأسرة ، التي تعد الخلية الأولي للمجتمع ، وهي الأم المسؤولة قبل غيرها عن تنشئة المواطن الصالح والزوجة الصالحة . (١)

د- العادات والأدواء الاجتماعية .

تصدى الكاتب "محمد توفيق دياب" بفكره وقلمه لبعض العادات الفاسدة والأدواء الاجتماعية السيئة التي تفشت في المجتمع المصري وقتئذ؛ فنبه إليها وحذر من خطورتها ، وكان هذا الدور من الكاتب نتيجة لإحساسه بمسؤوليته تجاه مجتمعه ومعايشته الواقع المادي أو الوجود الاجتماعي .

---

(١) انظر الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية في العصر الحديث ، د / محمد كمال يحيي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ ، ص ٢٢ .

وهذه إحدى سمات الأديب القوي الذى له قدم راسخة في المجتمع وجذور ضاربة في محيطه البيئي ، مما يجعل عمله صورة دقيقة ، وتعبيرا صادقا لما يعتمل في صدره من أحاسيس ومشاعر استقاها من بيئته وعايشها في مشكلاته وقضاياه ، وحينئذ تكون أعماله جديرة بالبقاء والخلود .

كما أن هذه المعايشة للواقع المادي أو الاجتماعي سمة من سمات العبقرية الفردية التي تشمل في حناياها الحياة الاجتماعية لعصر أو هيئة وترمز لها أي تمثلها ، وخاصية المؤلف الأدبي هي أن يثير لدي القاريء استجابات في ذوقه وإحساسه وخياله ، ولكنه كلما كانت الاستجابات أعمق وأوفر؛ فالمتلقي يكون أقل استعدادا لأن يفصل نفسه عن ذلك المؤلف . ([1])

ومن الأدواء الاجتماعية التي أصابت نفوس وقلوب كثير من فئات المجتمع المصري آنذاك داء الأنانية والإفراط في حب الذات ، وقد تفشي هذا الداء الخطير نتيجة للاحتلال الذي نزل بالمجتمع المصري بسوءاته ورزاياه ، مما أدي إلي ضياع بعض القيم وتبدلها ، وإحلال غيرها مكانها ، وكانت الأنانية أحد هذه الأمراض ؛ وقد أصابت كل شرائح المجتمع ، الكبار، والصغار، والموظفين والطلاب والعمال ، والأغنياء والفقراء ، وليس هناك أبدع من تصوير الكاتب لهذا الداء ومدي تأثيره في نفوس وقلوب هؤلاء ، حيث يقول "دياب" في محاضرته " ثروتنا الخلقية " : ([2]) "

([1]) انظر النقد المنهجي عند العرب ، د / محمد مندور ، دار نهضة مصر الطبع والنشر ص ٤٠ – ٤١ .

([2]) اللمحات ١٤ –١٩ ألقيت فى ١٩٤١ .

ثروة مصر الخلقية تتألف من أخلاق أفرادها كما تتألف من أموالهم ثروتها المالية . وإني لأخشى أن تكون ثروتنا الخلقية ، مرهقة بالديون مهددة بالإفلاس ، كثروتنا العقارية ، وليس الدائنون – في هذا المجال المعنوي – بنوكا ومصارف ، أو مستغلين دخلاء يرهقوننا بالربا الفاحش ، إنما ذلك الدائن المرهق ، وذلك الغريم الملح ، ذلك العدو اللدود ، هو الأنانية ، هو الإفراط المنكر في حب الذات ، هو استهانتنا المنكرة بواجباتنا ، واستهانتنا المنكرة بحقوق من سوانا ، ما دام في الأمر إرضاء لشهوتنا أو راحة من عنائنا أو تحقيقٍ لمنافعنا " .

هذا هو الداء الذي أصاب الأخلاق ، أما عن آثاره وأعراضه وما تركه في نفوس الناس من أثر، فإن الكاتب يصوره أدق تصوير ، ينم عن معايشة واعية وحس لاقط ، ومشاعر مرهفة تداخلت في نفوس الناس ومشاعرهم ، فاستطاعت أن تصفها وتصورها تصويرا واضحا ، فيقول : " تسأل الشاب ، بل الكهل الغني المستهتر : ماذا يمنعك من الزواج ؟ فيجيبك : مالي ولهذه التبعة ؟ إن في المتاع المباح متسعا لأمثالى .... فإن يقصد بالمباح تلك المباذل التي إن أجازها القانون ، فقد لعنها الله ، فيا له من متاع وبيء تطيب لهم خبائثه حتى أرذل العمر ، لكنها الأنانية ، فيها إرضاء لشهواته وإراحة له من عناء الزوج والولد . تسأل الموظف . أو نقول بعض الموظفين ، حتى لا يغضب الجميع – ماذا يشغل بالك ويملك عليك أحلامك بالليل ولبك بالنهار ؟ فيجيب : " درجة رابعة خالية " . تسأله: وهل أنت أحق زملائك بها ؟ يجيب : كلا ..... لكن المسائل كلها اليوم محسوبيات وصلات ووسائط ووسائل ، ويكاد يبكي المسكين ، ويسب

الأولين والآخرين ، ويدعو علي الدنيا بالخراب ، وليته صـــاحب حـــق ... لكنها الأنانية " .

ما أروع هذه المساجلة التي صنعها الكاتب ، والتي تداخل من خلالها إلي نفوس وقلوب متلقيه ، فعرف ما يشغل بالهم ، ويدور فـــي خلـــدهم ، وهذه طبيعة الأديب ذي الإحساس المرهف ، والحس اللاقط ، الذي يتعرف به علي قضايا المجتمع ومشكلات أفراده ، وأدوائهم وعاداتهم .

وما زلنا مع الكاتب وهو يرصد لنا ما صنعه هذا الداء (الأنانية) بكل شرائح المجتمع ، وكان ضروريا أن ينبه الكاتب وينصح ويرشـــد ، فهـــذه وظيفته ، أو ينبغي أن تكون ، فيقول عن الأنانية وعما صنعته بالناس:([1]) " الأنانية هي التي تزين للطالب أن يطلب العلم للشهادة ، لا الشهادة للعلـــم . حتى إذا أحرزها ، اتخذها صكا علي الدولة ، يتقاضي به الجلـــوس طيلـــة حياته إلي المكتب بأجر محدد ولكنه (مضمون) . قاتل الله الأنانيـــة . فهـــي التي تزين للصانع أن يكسل ما استطاع الكسل وأن يقصر في الإنفـــاق مـــا استطاع التقصير . هي التي تزين للتاجر أن يجمـــع أرزاق النـــاس بـــثمن رخيص ، حتى إذا صرخت حاجتهم ، باعهم إياها بأفحش الأربـــاح ، لـــولا حماية التسعيرة، التي يغافلها كلما استطاع . قاتل الله الأنانية ، هي التـــي تزين لشاهد الجريمة أن يكتم شهادته عن القضاء ، رهبا أو رغبا ، فتحفظ أكثر القضايا ، وتهدر دماء المئات من الضحايا كل عام. هي التـــي تـــزين للأدنياء شهادة الزور ، وللفتاك قتل الأبرياء بثمن معلوم " .

([1]) اللمحات ١٦، ١٧ المقال السابق نفسه

وهكذا يرى الكاتب أن الأنانية مرض أصاب كل الطوائف ، فقطع أواصر الجماعة المصرية في كل مكان ومنحي ، وزين لأصحاب الأفدنة أن يأكلوا أجر العمال ، وجعل الغني يغل يده عن إغاثة الملهوف ، وهو الذي حول المناصب مغانم وهو الذي زرع البطر و الكبر في ذوي المناصب، والحسد في قلوب المقهورين والضعفاء بل هو الذي حمل المصريين على أن ينسي بعضهم بعضا ، ويخشى أن ينسي الجميع هذا الوطن . ([1])

وفي نهاية هذا الموضوع يري أن هذا مرض أخلاقي ، وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا ، وأن بقاء الأمم مرهون بثروتها الخلقية وإذا أفلست أمة من هذه الثروة لم تغنها عنها ثورة المال ولا ثروة العلم والأدب فتيلا . وهذه حقيقة لا جدال فيها ولا نقاش ، وستبقي مع مرور الأيام والأزمان .

. . . . . .

ومن الأدواء و العلل الاجتماعية ، التي عالجها الكاتب "توفيق دياب" ظاهرة الإسراف في الأفراح ، وقد عدها داء اجتماعيا ، حيث تُصرف فيها الأموال الطائلة رياء وتظاهرا ، في الوقت الذي يعاني فيه كثير من الفقراء والمحتاجين ، ولا يجدون زيتا يوقدون به مسار جهم ، وهو إذ يصور هذا الداء فانه يحكي واقعا رأه بنفسه وعايشه بأحاسيسه ومشاعره ، فينقل صورة فرح كان في الحي ، وما كان فيه من الزينات ومصابيح بلغت عشرات المئات ، وأرائك و زرابي مثبوثة ، وكراسي مطلية بأمواه الذهب ،

([1]) انظر اللمحات ص ١٧ .

وقد أحصي الكاتب منها ألفا أو أكثر ، فضلا عن الآلات الموسيقية ، أما عن موائد الطعام فقد رأي عليها أعداداً كثيرة من الضأن والديكة الرومية ، والدجاج والحمام والسمان ، وكماً كبيراً من الدنان والكؤوس لا يحصيه العد . ([1])

ولا يملك الكاتب تجاه هذه المظاهر وذلك الإسراف إلا أن يصف مشاعره التي ازدوجت ، حيث تملكه الأسى والألم علي ضياع هذا المال بهذه الصورة ، التي يغلب عليها طابع الإسراف والتبذير ، وتملكه في الوقت نفسه شعور بالعطف علي العروسين وحبا لهنائهما . ولننظر كيف سجل الكاتب هذه المشاعر بأسلوب أدبي يتسم بالعقلانية والوضوح حيث يقول ([2]) : " كان شعورى حين رأيت هذا الذي أردت أن أصف لك ولو بضعه فلم أستطع ، شعورا مزدوجا . مئات من الثريات والمصابيح تملأ العيون نورا ولكن تملأ النفوس ماذا ؟ أما نفس من يحدثك هذا الحديث فقد امتلأت عطفا علي العروسين وحبا لهنائهما ، ولكن يمازج هذا الشعور شعور آخر ، هو ودي لو أن بعض هذه الألوف من النيرات كانت تضيء الليلة مئات من الأكواخ المظلمة التي يطلب أصحابها ثمن مسرجة ، أو ثمن زيت يوقدون المسرجة فلا يجدون .... ولو أن الأموال الطائلة التي أنفقها آل العروسين به إطعام الأغنياء من سراه المدينة ، كانت أنفقت في بعض الملاجيء ، لكان هذا القران السعيد مصدر سعادة أخرى لمئات من المعوزين الذين هم بحاجة صارخة إلي المأوي والطعام .

([1]) انظر اللمحات ، ١٧١ ، مقال فرح عظيم نشر ١٩٢٣ .

([2]) السابق ١٧١، ١٧٢ المقال نفسه .

وهو بذلك يسبح فى نهر العدالة الاجتماعية ، التى يتمنى من خلالها ألا لو وجهت مثل هذه الأموال إلى بعض الفقراء والمعوزين حتى يعم التكافؤ الاجتماعى فى هذا المجتمع التى يجب أن يكون التضامن الركن الركين فيه ، والكاتب محق فى ذلك ، فالمجتمعات الرقية المتحضرة تقوم على التضامن والتكافؤ ورعاية الفقراء والمحتاجين ، والمجتمعات الإسلامية يجب أن تكون من أرقى وأعلى المجتمعات فى هذا الشأن ؛ لأن الإسلام دعا أصحابه إلى الاعتدال والتوازن والإنفاق ، ومن ثم أخذ الكاتب يتسأل فى حسرة وألم : "متى يمسك الناس عن تبذير أموالهم فيما لا فائدة فيه ولا طائل من وراءه ، ثم اقترح عليهم كيف تكون مثل هذه الحفلات فيقول :" ترى متى يمسك مواطنونا عن تبذير أموالهم في مفاخر ليس فيها من فخار ؟ ومتي يكتفي العروسان بحفلة سرور من الأهل والأقربين في غير "مظاهرات" ولا مباهاة بالترف والإسراف . فإذا كان لا بد من المباهاة، ففي ميدان البر والعمل النافع ، .. متي أيها المواطنون ؟ . " .

ومن الأدواء التي تفشت في المجتمع المصري حينذاك ، واستطاع الكاتب بحسه المرهف ، ومعايشته لأحوال المجتمع ومشكلات أفراده أن يرصدها ، وينبه إلي خطورتها ، ظاهرة المزواج والمضرب عن الزواج .

وقد عدها الكاتب ضررا اجتماعيا كبيرا ، لأنها وثيقة الصلة ببناء المجتمع ، بعيدة الأثر في تقوية ضعفه ، وإضعاف قوته .

وقد تمثلت هذه الظاهرة وذلك الداء الاجتماعي في طائفة عاجزة عن تبعات الزوجية غير مقدرة لحقوقها . تهجم عليها ويسرفون فيها ، وفي

المقابل طائفة أخري من المثقفين المرزوقين الموفـورين القـادرين علـي تكوين الأسرة المثالية تحجم عن الزواج .

وإزاء هذا الأمر لم يجد الكاتب بدا من التنبيه علي خطورتـه علـي المجتمع ، في كلا الحالين : المزواج والمضرب عن الزواج ، وتحت هـذا العنوان يقول الكاتب راصدا هذه الظاهرة وذلك الـداء: (١) " هـذه طبقـة العاجزين عن تبعات الزوجية ، وهم عليها يهجمون ، وبحقوقها يعبثـون ، وفيها يسرفون . ولولا أن عددهم يتناقص ، وخطبهم يتضاءل ، بما ينتشر من أسباب الوعي والمعرفة في صفوف السواد لخشينا الخطر كـل الخطـر علي مجتمعنا من هذا العبث الذي يقضي علي كرامة الأبوة وحرمة الأمومة وبر البنين وعزة البنات . " .

هذا عن الطبقة الأولي كثيرة الزواج ، أمـا عـن الطبقـة الثانيـة المضربة عنه فيتساءل الكاتب في تعجب وحيرة من انصرافهم عن الـزواج مع قدرتهم عليه فيقول : " ... فما بال كثير مـن أبنـاء مصـر المثقفـين المرزوقين الموفورين القادرين علي تكوين الأسرة المثالية من زواج هنيء وعيش رغيد ، وذرية سليمة من الأمراض . ما استطاع الطب ، مبرأة من الجهل ما استطاع المربيات والمربون والمعلمات والمعلمون ، منزهة عـن الصغائر و الرذائل ، ما استطاعت البيئة العالية والمحيط الكريم ، مـا بـال هؤلاء القادرين علي إسداء هذه اليد العظمي إلي الوطن بالزوجية الصالحة والأسرة النقية والذرية الزكية القوية ، ما بالهم لا يقدمون ؟ إنهـا تكـون نعمة علي مصر من حيث هي نعمة علي أنفسهم . " .

---

(١) اللمحات ٢١٧ : - ٢١٩ كلمة إذاعية أذيعت ١٩٤٦ .

ولا يخفي ما في الأسلوب من عاطفة جياشة ، وتجربة صادقة ، وحث وحض وترغيب لأولئك الذين يضربون عن الزواج بحجة جهلهم بتبعات الحياة ، وهذا السبب في عرف الكاتب ورأيه أشد إيذاء وضررا من جهل المطلاق المزواج الذي يجهل تبعات الزواج . وفي أسلوب قائم علي الموازنة بين المضرب والمطلاق يعبر الكاتب قائلا : " .... فلماذا لا يقدمون علي خطبة الفتيات المثقفات من أهل البيوت الطيبة ، وهي تحصي بالألوف ؟ لا يفعلون لأنهم يجهلون تبعات الحياة ، إذا كان صاحبنا المطلاق المزواج يجهل تبعات الزواج . بل جهلهم أشد إيذاء من جهل صاحبنا المسكين . ذلك بأن مسلكهم لو عم الدنيا لأورثها العقم والعدم . فأما مسلكه فلو عم الدنيا لأورثها نوعا من الفوضي قد يصلحه مر الزمان ، وارتقاء الوعي والمعرفة ..... لذلك نعود فنسألهم ماذا يحملهم علي الإضراب عن نصيبهم في بناء مصر الحديثة ، بما يضربون عن نصيبهم في إنشاء الأسرة المصرية الجديدة ؟ . " .

وهكذا نرى الكاتب وقد حاصر هذه الظاهرة ، وجادل أصحابها بالدليل والبرهان والعقل ، بخاصة أولئك الذين يضربون عن الزواج ، كما بين ضررها علي المجتمع .

هذا وقد وافقت دعوة الكاتب جانبا من مقاصد الشريعة الغراء ، التي بينت أنه لا رهبانية في الإسلام ، وأن من قدر علي أعباء الزواج وتكاليفه وجب عليه ذلك ، لما فيه من الحماية والصون والعفاف والطهر ، وإعمار الأرض بالذرية الصالحة .

وقد جاء أسلوب الكاتب رائعا سهلا يسيرا ، يصل إلي القلوب والعقول قبل أن يصل إلي الآذان .

ومن الأمراض الاجتماعية التى كان يعانى منها المجتمع المصرى آنذاك مرض الأطفال المشردين في الشوارع والطرقات ، ولا غرابة فى التعبير عن هذه الظاهرة بأنها مرض ؛ إذ هى بالفعل كذلك لأنه ينتشر بصورة سيئة يصعب السيطرة عليها ، كما أنه يترك آثاراً وخيمة وسيئة على المجتمع أفراد وجماعات ، كما أن علاجه وتطبيبه أمر غاية فى الصعوبة ، حتى فى وقتنا الحاضر تشتكى كثير من المجتمعات من هذا المرض الخطير وآثاره السيئة التى يشيعها بين طبقات المجتمع.

وقد استطاع الكاتب " توفيق دياب " أن يصور لنا مشهداً من هذه الظاهرة وذلك المرض ، تعتصر لرؤيته القلوب ، وتمتلىء النفوس حزناً وألماً وحسرة ، ويبدأ المشهد من تعرف " الكاتب " إلى شاب من أسرة عريقة واسعة الثروة ، تدور أحلامه حول الفقراء والمرضى والمساكين ، وأكثر همه الشكوى من تلك الهوة السحيقة التى تباعد بين الأقوياء والضعفاء ، وبين الأغنياء والفقراء ، وبين السعداء والأشقياء (١). وفى ذات ليلة طلب من الكاتب أن يسمح له بمرافقته إلى دار من دور الصور المتحركة ، ليشهد معه قطعة عنوانها " الشقاء " ، فوافق الكاتب وسار معه، ومن هنا تبدأ أول صور مشهد الطفل المشرد فى الحقيقة لا فى (السينما) ، ولندعْ الكاتب يصور لنا هذا المنظر البائس حيث يقول : " وإنا لفى بعض الطرق بشارع عماد الدين حيث العربات تزحمها السيارات ، والسيارات يزحمها (المترو) وحيث الأنوار الساطعة والجموع المائجة..... وإذا صرخة تند من غلام لم يبلغ العاشرة ، داسته قدم

---

(١) انظر مقالته " العاطفة المتبخرة " فى اللمحات ١٦٧- ١٦٨ نشرت ١٩٢٣.

عابرة ، فأزعجته . وكان المسكين مستلقياً إلى جنب جدار فى ناحية من الطريق إعياءً ووهنا، غلام عارى البدن إلا من بقية خرقة بالية . وكان الفصل شتاء وأسنان الغلام تصطك وجسمه يرتعش وعيناه تدمعان ، فيهما ذلة وفيهما ضراعة ، إلى هذه الدنيا الضاحكة حوله وهو يبكى ، يبكى من جوعه وعريه وبرد الشتاء وثلج القلوب . نظرت إلى الغلام ثم إلى صاحبى ثم إلى الغلام ، وحدقت فى صاحبى مرة ثالثة أريد أن أتبين فى وجهه مبلغ تأثير هذا المشهد فيه ، فلم أر شيئاً ، بل تعجلنى إلى دار الصور لأشهد معه " رواية الشقاء " . عجبت ؟ وحزنت ظهر لى فى تلك الساعة ما قرره علماء النفس من أن بعض الطبائع مرزوء بتبخر العواطف الطيبة . يبكى صاحبنا إذا قرأ رواية فيها تصوير خيالي للشقاء . ويبكى إذا شهد رواية الشقاء على المسرح أو على الشاشة البيضاء . لكن الشقاء الحى الماثل أمام العيون ، الشقاء الذى ينخر عظام المجتمع المصرى فى عاصمة الديار المصرية وفى أحشد شارع من شوارعها ذلك لا يحركه ولا يؤثر فيه .

" أيها الشباب من أبناء مصر من كان منكم ذا عاطفة طيبة فليتخذ منها دافعاً إلى عمل طيب .

هذا هو المشهد الحقيقى الذى استطاع الكاتب أن ينقله إلينا بمشاعره وأحاسيسه قبل كلماته وعباراته ، كما بين خطورة هذا المرض ، وما يفعله بالمجتمع من أضرار ، وهذه طبيعة الأديب الحق ، يعمل – دائما – لصالح مجتمعه ووطنه .

****

ومن العادات السيئة التي تعد مرضا اجتماعيا ، ما يحدث في المآتم مما لا يتوافق مع الشرع أو العرف أو الحضارة والتمدن .

ومن ثَّم فقد دبجَ الكاتب مقالاً بعنوان " مآتمنا " رصد فيه بعضاً مما يحدث في تلك المآتم من تجاوزات تخالف الشرع والقيم والتمدن والحضارة ، وهو لا يكتب بالسماع ، وإنما عن تجربة وحادثة حقيقية عاينها بنفسه ، فسجلها بقلمه تسجيل من رأى وسمع ، فيقول ([1]) : " في الساعة الثالثة بعد منتصف الليلة الماضية ، فزع سكان الحي فزعة يقصر دونها الوصف – فالأطفال هبوا من رقادهم ذاهلين كمن به مس . والنساء هبين فزعات يحسبن حريقاً هائلاً قد امتدت نيرانه إليهن من حيث لا يشعرن– والرجال خفوا من مضاجعهم يتساءلون عن الخطب المفاجىء؟ وبعد هنيهة عادوا إلى مضاجعهم يسخطون من عادات ممقوتة ليس لها شبيه في بلد متمدن ."

هذا عن الأثر ،وقد آثر الكاتب أن يأتي به أولا ، ليظهر خطورة هذه العادة السيئة ، أما الحدث فهو كما يصوره الكاتب : " مريض طال عليه المرض وأدركه الأجل المحتوم في تلك الساعة ، فكان ما يكون في ديارنا عند كل وفاة من تصويت يمزق الأعصاب ويخلع القلوب ، دون أن يراعي أهل (المرحوم) حرمة الموت وجلاله ، ودون أن يذكروا أن الجيران في تلك الساعة نيام ، وفيهم الطفل الرضيع والشيخ الضعيف العاني – وقد يكون شفاؤه رهنا بالطمأنينة والسكون . " .

([1]) اللمحات ١٥٠ – ١٥١ من مقال بعنوان " مآتمنا " نشر سنة ١٩٢٣ .

هذا هو الحدث ، أما ما يفعله أهل الميت فيحكيه الكاتب بشيء من التفصيل والسخرية والتهكم ، فيقول : " إذا قام مأتم في دار أبي أهلها إلا أن يجعلوا كل دار في الحي شريكه في المأتم ، بما يرفعون به عقائرهم إلي عنان السماء من عويل أصيل ومجلوب : نقول "مجلوب" لأن النائحة الثكلى لا تكتفي بنواحها ونواح الحميمات من قريبات وصديقات ، بل تستعين بالنائحة المستأجرة ..... ونحن نجد – كسائر الناس – موت عزيز من الأهل أو الأصدقاء مبعثا للأسى واللوعة . لكن الذي نستهجنه ويستهجنه كل بيت مهذب في مصرنا هذا– هو أن تستعين النساء الحزينات بنادبة لا تشاطرهن حزنهن إلا تكلفا وتجارة ، فيتخذنها عونا علي ذكر الفقيد وتعديد مناقبه ، في كلمات محفوظة تترنم بها في صوت يتهدج بالعاطفة الكاذبة ، وهن يتبعن كل وقف من ترانيمها بصرخات مزعجة ، يصوت بها النساء في وقت معا ، فما أقبح وما أرذل ؟ " .

ولم تقتصر هذه الشناعات علي أفنية البيوت ، أو علي مضايق الأزقة، لكن بعض النساء يشيعن الجنائز علي هذه الصورة النكراء ، التي يأباها الدين وينفر منها الذوق .

وإذا كان دور النساء ، فالرجال – أيضا – لهم دور لا يقل قبحا ورذالة عن دور النساء ، يصوره الكاتب فيقول : " ثم لا تنس أولئك الرجال الغلاظ الأشداء الذين اتخذوا الإنشاد السخيف المرذول أمام الجنائز ، صناعة أولئك الذين هم الرجال كالنادبات من النساء : "جيناكم يا سيادي – يا سيادي جيناكم" ؟ .

" الحق أن كثيراً من مآتمنا منكر تضج منه آداب الدين والدنيا معا. "

وهكذا نري أن الكاتب استطاع أن يرصد ما كان يحدث في هذه المناسبة (المآتم) من بدع وخرافات وشناعات ، تتنافى كلها مع تعاليم الدين وروح الحضارة والرقي ، وقد حرض في تصويره علي إبراز التفاصيل ؛ لينفر الأسماع منها ، ويزجر النفوس عنها ، وجاء كل ذلك في أسلوب سهل بسيط خال من المحسنات البديعية المتكلفة ، ومعبر عن الواقع وراسما إياه ، وقد ارتكز علي بعض الأدوات الفنية التي تظهر استياءه من تلك العادات ، فأتي ببعض الكلمات والعبارات الدالة علي ذلك مثل : النائحة (الأسى) (واللوعة) (نستهجن) (العاطفة الكاذبة) (صرخات مزعجة) (فما أقبح) (ما أرذل) (السخيف) (المرذول) (منكر) ، وكلها كلمات تدل علي مدي استهجانه لهذه التصرفات في مثل هذه المناسبة التي تحتاج إلي الخشوع والتدبر والصبر .

****

ويأبي الكاتب إلا أن يطلعنا علي داء اجتماعي آخر، يتمثل في أولئك الباعة الجائلين ، الذين يطوفون الشوارع والطرقات ليلا ، ويزعجون الناس بأصواتهم ونداءاتهم في أوله وآخرة ، وقد صور الكاتب هذا الأمر في مقالة بعنوان " الصغائر المزعجة " ساق فيها بأسلوب ساخر وطريف ما يحدث من أولئك الباعة ، وما يقومون به من إزعاج للنائمين ، ولنأخذ جزءاً من هذا المقال ، الذي يجمع فيه صاحبه بين الواقعية والسخرية والطرافة : ([1]) " هبك تسكن "بير المش " أو " قنطرة الذي كفر " أو " كفر الزغاري " أو " سوق السلاح " أو زقاقا آخر من أزقة القاهرة ، أو شارعا وطنيا من

([1])اللمحات ١٥٧ من مقال "الصغائر المزعجة" نشر سنة ١٩٢٣ .

شوارعها . فهل تستطيع النوم في طرفي الليل ، أو الاستراحة والهدوء عصر النهار ؟ كلا . " طاظه يا لبن " صوت ضخم ممتد من حنجرة قوية لا يزال يلح علي سمعك وأعصابك حتى يؤذيها أبلغ الأذى ، وقد تكون ممن لا يشتهون "لبن الزبادي" أو ممن يشتهونه ، ولكنك ملأت منه جوعتك وقت العشاء حتي لا موضع لمزيد ، فيقع منك هذا النداء موقعا مؤرقا أليما . " .

ويسير الكاتب في بقية المقال علي هذا النحو ، مظهرا الصغائر التي ينبغي ألا تكون موجودة في مجتمع راق متحضر . (١)

ومما سبق نستطيع أن نوجز القضايا الاجتماعية التي عالجها الكاتب "محمد توفيق دياب" معالجة أدبية ، اتسمت بصدق العاطفة ، ورهافة الحس، فضلا عن الأسلوب الأدبي الرائق ، الذي عكس شخصية صاحبه بصورة واضحة ، بأفكارها وتطلعاتها وحرصها علي المجتمع ، ورغبتها فى حل قضاياه ومشكلاته . وهذه القضايا هي :

(أ) القرية المصرية ومشكلتها .

(ب) المناداة بإصلاح التعليم .

(ج) قضية المرأة المصرية .

(د) العادات والأدواء الاجتماعية .

وقد اشتملت القضية الأخيرة علي عدة أدواء وعلل وهي :

---

(١) انظر بقية المقال من ١٥٧ : ١٦٠، فقد أورد فيه الكاتب مجموعة من الصغائر والعيوب الاجتماعية في صورة ساخرة وطريفه . وهناك مقال آخر بعنوان يا شاويش، ينعى فيه مرضا أخلاقيا خطيرا وهو مرض الرشوة . اللمحات ص ١٥٤ نشر سنة ١٩٢٣.

- الأنانية والإفراط في حب الذات .
- ظاهرة الإسراف في الأفراح .
- المزواج والمضرب عن الزواج .
- الأطفال المشردون .
- المآتم وما يحدث فيها .
- الباعة الجائلون .

هذه هي أهم القضايا الاجتماعية ، التي عالجها الكاتب معالجة جمعت بين شرف الموضوع وبراعة الأسلوب .

ثانيا : القضايا السياسية والوطنية .

لم يتوقف نثر الكاتب "محمد توفيق دياب" عند القضايا الاجتماعية بل تخطاها إلي القضايا السياسية والوطنية ، وصدر فيها عن معايشة ومخالطة، حيث كان سياسيا بطبعه ، بله كان عضوا في حزب سياسي أسهم بدور كبير – آنذاك – في إدارة حكم مصر ، وهو حزب الوفد بزعامة "سعد زغلول" . فضلا عنه أنه أنشأ صحيفة وفدية هي صحيفة (الجهاد) تناولت معظم القضايا الوطنية والسياسية ، واصطبغت بصبغة صاحبها ورئيسها "توفيق دياب" الذي دخل في معارك سياسية ، وتناول قضايا وطنية بجرأة وقوة وشجاعة ، مما أدي إلي دخوله السجن تسعة أشهر، ولكنه خرج منه أشد بأسا وأقوي عزما .

كما كان "دياب" في خوضه معترك السياسة نزاعا إلي الحرية واستقلال الرأي ، يرفض في اباء أن تفرض عليه خطة يتبعها أو مذهب

يدين به ، وكان لا يقبل شيئا يرفضه ضميره ، ولا ترتاح إليه نفسه ، كما كان يعرف قدر نفسه ويعتز بكرامته واستقلال شخصيته . (١)

وقد سطر الكاتب منهجه في السياسة والوطنية ، وأقول السياسة والوطنية لأنهما متلازمان لا ينفصلان ، سطره بكلمات تعد منهجا ودستورا لكل وطني مخلص يحب وطنه ويحرص علي تقدمه ورفعته وعزته ، ففي مقالته "الوطنية الفاضلة" يضع "دياب" الخطوط العريضة لمعني الوطنية وعلاقتها بالسياسة ، في أسلوب أدبي جذاب فيقول : (٢)" إذا كانت نبضات قلبك وخطرات نفسك مصدر كل لفظ تفتر عنه شفتاك ، وكل سعي تحث فيه خطاك ، فإن شرا فشر ، وان خيرا فخير . فان خدمة وطنك عن طريق السياسة لا تستغني عن سلامة القلب وطهارة النية بحال . " .

ويزداد الكاتب وضوحا وتفصيلا ، ويبين معنى حب الوطن ، وكيف يكون فيقول : "وليس من سلامة القلب ولا طهارة النية ، أن نحب الوطن وتكره فريقا من بنيه انقيادا لهواك أو طواعية لهوي سواك ، فحب الوطن ليس معناه مجرد حب الدور والقصور ، وحب الزرع والضرع ، أو حب الماضي المجيد أو حب المستقبل السعيد ، نعم أنت تحب هذا كله . ولكن عليك واجب آخر هو أن لا تنسي أن حب الوطن معناه قبل كل شيء حب المواطنين ، فهم الذين بهم ولهم تعمر الديار وتشاد القصور ..... من أعز الوطن حقا أعز أبناء الوطن – ومن أعز أبناء الوطن ، ضن بهم جميعا فلا يرمي أحدا منهم بسوء ، ولا يأخذه بريبة ، ولا ينابذه بلقب ،

---

(١) انظر توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ٢ / ٣٣ .
(٢) اللمحات ١٥٢ ، ١٤٣من مقال "الوطنية الفاضلة " نشر سنة ١٩٢٣ .

حتى يستيقن أنه لا يتهم بريئا ولا يثلب كريما ..... لقد تسب نفسك حين تسب مواطنك ، وتهدم نفسك حين تهدمه . " .

ويختم الكاتب مقاله بهذا النداء الحار ، وتلك النصيحة الغالية ، فيقول: " أيها المصري الكريم ، أعزز إخوتك في المصرية كما تعز اخوتك لأمك وأبيك ، ولا تغمز وطنية أحد منهم إلا أن تأتي بآية قاطعة وبرهان مبين." .

هذه هي الوطنية الفاضلة ، التي تحرص علي المجتمع (أفرادا وجماعات) وتدفعه إلي الأمام ، وترتقي به سلم المجد والعزة . ولا يخفي ما في الأسلوب من عاطفة جياشة صادقة ترتسم ملامحها علي كل كلمة ، وكل عبارة مما يجعلها كأنها أنشودة يتغنى بها كل وطني يعظم وطنه .

****

ومن أولي القضايا السياسية والوطنية : المناداة بالجلاء والاستقلال . فقد عاشت مصر في ظل الاحتلال الإنجليزي سنوات عصيبة ، فقد استبد ذلك المحتل بالناس ، وأحكم قبضته علي مقاليد الأمور ، وعبث باستقلالها، وتغلغل في شؤونها ، وأحكم دسائسه ومؤامراته ، ووضع العراقيل والعقبات أمام الناس ليعيشوا في حالة من الخضوع والاستسلام . فضلا عن مماطلته وتسويفه ، وتقييده الدولة بمعاهدات حصل بموجبها علي امتيازات كثيرة ، أصبحت في نظره حقوقا ، وإجمالا فقد فرض سيطرته علي كل مقدرات الدولة وأمورها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . كما أنه أشاع

بين أذنابه وأتباعه أن مصر غير قادرة علي حماية نفسها واستقرار الأمن فيها . (١)

ومن ثم علت أصوات المنادين بالجلاء و الاستقلال ، وكان توفيق دياب" واحدا من أولئك الأدباء الغيورين علي وطنهم ، المنافحين عنه ، المطالبين بتحريره ، المظهرين قدره ومكانته ، وقدرته علي حماية أرضه ومقدراته . فكتب "دياب" مقالة بعنوان "مصر الفتية" رد فيها هذه الفرية الكاذبة . وفند تلك الدعاوى الباطلة التي تتهم مصر بالعجز ، وبأسلوب أدبي حماسي يتناسب مع الموقف يرد الكاتب علي فرية (عجز مصر) فيقول : (٢) " ..... يا لها من كلمة كئيبة شوهاء . مصر ليست بالعاجزة مصر الفتية الناشئة الناهضة ابنه اليوم الحاضر ، ليست بعاجزة . كلا . ولا حاجة بك ولا بي ولا بأحد من الكتاب أو الشعراء أن يستعيد لها ألوان المجد القديم من أجدادها الفراعنة أو آبائها العرب ، ذلك أن لمصر الفتية بنت اليوم الحاضر مجدا طريفا ، تريد أن تبلغه في يومها وغدها القريب ، كما بلغت مصر الفرعونية ومصر العربية مجدها التليد ! " .

هذه هي مصر وتلك مكانتها ، وهذا هو تاريخها ، فهل يصدق أحد أن أمة بهذا الشكل عاجزة عن حماية نفسها ؟ هذا هو لسان حال الكاتب المرسوم علي كلماته وعباراته . أما عن مظاهر الضعف فيفندها الكاتب ، ويظهر الأسباب والظروف التي أدت إلي ذلك ، فيقول : " أما مظاهر العجز التي تراها ، فليست إلا مظاهر . نعم ، وليست إلا ظروفا قاهرة . وغلبة

---

(١) انظر الاستعمار والتحرير في العالم العربي ، د/جمال حمدان ، دار القلم ١٩٦٤ . ص ٩٢ .
(٢) اللمحات ٦٠ : ٦٦ من مقال بعنوان ط مصر الفتيه " نشر بجريدة الجهاد سنة ١٩٢٣ .

مسلحة في البر والبحر ، وظلما من الخارج وظلما من الـداخل – ظروفـا قاهرة ولدت مصر الفتية مغلولة بأغلالها مرتطمة في غمارها ؛ وما زالـت تعاني منها ما يعاني المختنق المكظوم من جو فاسد مسموم ! فهل تسـمي ذلك عجزا إلا كما تسمي احتباس الآساد المقهورة بـين قضـبان الحديـد عجزا، فإذا سميته عجزا ، فهل هو عجز كامن منبته طبيعة الأسود ، أو هو عجز طاريء لا يلبث إذا حطمت القضبان وأخلي السبيل لملوك الغاب ، أن يستحيل جرأة وإقداما وقوة صائلة جائلـة فـي ميـادين الغلـب ومعتـرك الحياة؟.".

وهكذا يحاول " الكاتب" إثبات أن مصر قوية فتية قادرة علي حمايـة نفسها ، دون مساعدة من أحد أو وصاية ، ومن أجل ذلـك قـدم الكاتـب الدلائل والبراهين علي صدق كلامه من الواقع الملموس الذي لا ينكـره إلا جاحد مكابر .

كما بين أن القوة الحقيقية لا تكمن في قوة السلاح فحسـب ، وإنمـا القوة المحركة لهذا السلاح هي قوة العزيمة ، وقوة العلم والإرادة ، القـوة هي محاولة الارتقاء بمصر في كل المجالات ، كما استطاع أن يقدم الشواهد علي صدق كلامه ، ثم وصل إلي نتيجة مؤكدة مفادها : أن اتهـام مصـر بالعجز عن حماية نفسها ، واتهامها بالعجز عن التقدم الحضاري ، إنما هو خرافة غربية أجنبية ، ألح القوم في تخذيلا للمصريين ، وقضاء علي بذور النبوع فيهم وسدا لباب الأمل أمامهم وكذا أبـواب العمـل . ([1]) إعادتهـا وتكرارها .

([1]) انظر اللمحات ٦١ ، ٦٢ المقال السابق نفسه .

ولما كان الأمر كذلك من احتلال الإنجليز لمصر، وعدم خروجه منها بحجة عدم قدرتها علي إدارة مقدراتها ، لما كان الأمر كذلك عمد الكاتب "دياب" إلي المطالبة الصريحة والعلنية بالاستقلال ورحيل المحتل عن أرض مصر دون أن يكون له أدني أثر ، يذكر الناس به ، أو حماية مزعومة أو مشاركة ظالمة ، ففي مقالته (قال الملكان) (١) يرمي الاحتلال بكلمات تشبه الحمم البركانية ، معلنا – في غير وجل ولا خوف – غطرسة الغرب وفساد طويته ، ومعلنا – كذلك – أنه لن ولم يصل إلي بغيته ما دام فينا نفحة من روح ولفحة من حماسة .

وتعلو نبرة الكاتب وتزداد حماسته ، فيعلن أن الأمة العربية ستكون يدا واحدة في وجه البغي والطغيان بحماسة موحدة وثيقة ، مفعمة بالتفكير والتدبير والحب الدائم والولاء المقيم . (٢)

وفي مقال آخر بعنوان "هذه الرؤوس" يندد الكاتب بأفعال الإنجليز وجرائمهم في حق أبناء مصر ، ويتهم ساسة الإنجليز بتحجر رؤوسهم ، وتبلد مشاعرهم ، ويلهج قلبه ولسانه وقلمه باستقلال وطنه من غاصبيه .

وكان السبب في إنشاء هذا المقال أن مجموعة من الغاضبين من أبناء مصر قاموا بإحراق بعض المرافق الإنجليزية ردا علي إزهاق أرواح مصرية دهمتها سيارات الإنجليز، فما كان منهم إلا أن أمطروا الغاصبين

---

(١) المقصود بالملكين : ملك المملكة العربية السعودية والملك فاروق وقد أدليا بتصريح عقب زيارة الأول لمصر، أعلنا فيه رغبتها في تعاون صادق بين جماعة من الدول متضافرة علي سلامتها المشتركة ، ومتكافلة في صيانة حريتها واستقلالها .

(٢) انظر المقال كاملا في اللمحات ص ٨١ : ٨٣ .

بوابل من رصاص المدافع الرشاشة ورصاص البنادق ، فقتلوا خمسة عشر شخصا وجرحوا أكثر من مائة ، ثم طالبوا – من غير أدب ولا حياء – بتعويض عما أتلفة الغاضبون ، مما أثار حفيظة الكاتب فأنشأ هذا المقال ، والذي يقول في مقدمته : ([1]) كل شيء في الدنيا يتطور ، إلا رؤوس بعض الساسة الإنجليز ، منهم هتافة الحرية والإخاء أيام الحروب ، ومنهم عوامل العنت والبغضاء أيام السلام .

وفي أسلوب عالي النبرة ، يوجه الكاتب خطابه إلي رؤوس الساسة الإنجليز ساخرا ومتهكما ومهددا ومتوعدا ، بأن أي اعتداء أو طيش علي أبناء مصر إنما هو هدم للكيان البريطاني ، ولم لا وهم يتعاملون مع أمة جديدة تطمح إلي العلاء والجلاء والخلود ، يقول "دياب" في ختام مقاله : " تطوري يا رؤوس الساسة الإنجليز . تنوري يا قذائف الرماة الإنجليز . إن كل طيشة في سياستكم ، وكل رمية من مدافعكم أو بنادقكم ، إنما هي هدمة في الكيان البريطاني بين الدول . ألا تفطنون ؟ ألا تدركون أية أمة تعاملون؟ إنها ليست أمة الثورة العرابية ، كلا ؟ ليست أمة سنة ١٩١٩ ، بل هي فوق ذلك ، وأشد من ذلك ، وآبي للضيم والهون من ذلك . أنها وليدة الذرة ، لا ذرة المادة التي يطلقها للفناء ، ولكن ذرة الروح التي يطلقها المصريون من بين الجوانح للجلاء والعلاء والخلود . "

ولا يزال الكاتب يسيل قلمه حماسة ووطنية ، ويلهج لسانه وينبض قلبه باستقلال وطنه وجلاء الاحتلال عنه ، فكتب مقالات عدة ، هاجم فيها

([1]) اللمحات ٨٤ : ٨٧ نشر فى الأهرام ،١٩٤٦/٢/٢٧ .

الاحتلال وبين عيوبه ورزياه ، وطالبه بالجلاء والرحيل ، ([1]) ففي مقاله "حقنا الكامل لا ينتقص" يطالب برحيل الإنجليز ، دون مشاركة أو أي مسمي آخر ، أو أن يكون لها شيء تقاضينا أو تجاملنا به ، وبأسلوب صريح ووطنية واضحة يعبر قائلا : ([2]) " لا نريد أن يبقي الإنجليز في ديارنا مسمارا كمسمار جحا ينصون عليه في المعاهدة أو ملحقاتها ، ثم يتخذونه وسيلة إلي إزعاجنا في كل حين ، والي مشاركتنا تلك المشاركة البغيضة الجديدة ، التي هي أثقل وقعا علي الآذان والنفوس من الحماية والاحتلال ..... إن قبلناها لا قدر الله غافلين ، فإنما نقبلها لتكون غلا في أعناقنا ، ونيرا علي عواتقنا ، ينتقل ذله وعاره من جيل إلي جيل" .

فإذا كانت هذه مواقف "توفيق دياب" تجاه الاحتلال ، ودوره في كشف آلا عيبه ومخططاته ، ومطالبته بالجلاء والرحيل ، من أجل استقلال الوطن وحريته ، وخلاصه من الذل والهوان ، إذا كان هذا موقفه وذاك دوره ، فإن له مواقف ومعارك مع أصحاب الرأي والنفوذ من الساسة المصريين القائمين علي أمر الوطن ، لا تقل ضراوة وجرأة عن معاركه مع الاحتلال ؛ فإذا كان يبغي من معاركه مع الإنجليز جلاءهم وتحرير الوطن من أرجاسهم، فإنه يبغي من الثانية رقي الوطن وتقدمه، وخلاصه من المستبدين والمفسدين من أبناء الوطن ، وقد أدى ذلك إلى دخوله السجن

([1])من هذه المقالات :" إلي الضمير البريطاني" و"الغد المأمول" و"رسالتنا في المؤتمر" و" متي تضيء شمسنا" و"عهد مصر الجديد" و"القنابل الديمقراطية" و"أعرني سمعك يا جون بول" و"جلاء تام ولكن شركة" و"حقنا الكامل لا ينتقص" .

([2])اللمحات ١١٣ من مقال "حقنا الكامل لا ينتقص " نشر فى الأهرام ١٩٤٦/٥/٢٣ .

تسعة أشهر بسبب تلك المعارك السياسية ، إلا أنه خرج من السجن أقوى مما كان(١).

وبروح وثابة ونفس أبية وعزيمة قوية نافذة ، راح " دياب " يعالج القضايا السياسية والوطنية ، وكل ما يتعلق بإدارة أمور البلاد وتسيير شئونها ، فلم يتوان فى كشف عيب ، أو فضح مؤامرة أو خيانة فرد أو جماعة ، أو تخاذل مسؤول ، أو إظهار فساد مالى ، أو سياسى إلى غير ذلك من أحوال المجتمع وظروفه السياسية .

ولما كانت القضايا التى تناولها " دياب " كثيرة ومتعددة ، فسنكتفى بإيراد نماذج من تلك القضايا ، لنرى كيف تناولها ، وبأى أسلوب كتبها وسجلها .

كان " دياب " ذا إحساس مرهف ، وحس أدبى لاقط ، لا يدع فرصة سانحة للكتابة إلا استغلها ، فهذه هى مناسبة انصرام عام ميلادى وحلول عام جديد ، يستغلها استغلالاً جيداً ، ويستخدمها استخداما رائعاً ، ينم عن حاسة أدبية عالية وذوق رفيع ، فيكشف من خلالها مجموعة من الساسة المصريين سولت لهم أنفسهم أن يبيعوها لأهوائهم ، وأن يشتروا بالمثل العليا ثمناً قليلاً ، ففى مقاله " أيها العام الماضى وداعاً " يعرف – فى مقدمته الأيام ، فيقول فى أسلوب أدبى رقيق : (٢) " وما الأيام إلا كآنية خالية يملؤها المالىء مما شاء من ماء زلال ، وألوان مرئية شهية ، وروح

---

(١) انظر اللمحات ١٢٨ من مقال "ماذا ضرنى سجنى " سنة ١٩٣٣ .

(٢) اللمحات ١٤١ من مقال " أيها العام الماضى وداعا " نشر فى يناير سنة ١٩٣١ .

عاطرة وريحان ، أو مما شاء من ماء آسن وطعام فاسد ، وعناصر تحمل فى طياتها الأذى والهلاك" .

وهكذا يستغل الكاتب هذه المناسبة ، ليظهر فيها بعض المعايب السياسية ، أو عيوب بعض ممن يشتغلون بالسياسة وإدارة شئون البلاد .

ومن القضايا الوطنية والسياسية التى تصدى لها " دياب " تجاوزات الحكومة فى التصدى لمظاهرات سنة ١٩٣٥ ، والتى أعلن فيها أن دستور سنة ١٩٢٣ غير صالح للعمل بمقتضاه ، مما ادى إلى خروج المظاهرات ، وتصدى الدولة لها بالقتل وإراقة الدماء وإزهاق الأرواح ، فكتب " دياب " يندد بسياسة القمع وقتل الأبرياء فى ١٦ نوفمبر ١٩٣٥ تحت عنوان :" وسائل القمع وإزهاق الأرواح " فيقول (١):" مستحيل علينا التسليم بأن الوسائل التى تلجأ إليها السلطات فى مصر لقمع المظاهرات وتفريق الجموع هى الوسائل المشروع فى حدودها التى يبيحها القانون وتقرها الإنسانية . واللجوء إلى إطلاق الرصاص على المجتمعين أو المتظاهرين ، إنما يكون إذا تفاقم عدوان المتظاهرين على القوات ، ولم يعد سبيل إلى تفريقهم إلا بإطلاق الرصاص ، وقد كان المفروض فى وزارة كالوزارة النسيمية (٢) كانت الأمة تؤيدها حتى يوم ١٣ نوفمبر - أن تكون من الحرص على أرواح المصرين بحيث تستنفد جميع الوسائل قبل أن تلجأ قواتها إلى استعمال الحديد والنار ."

---

(١) جريدة الجهاد فى ١٩٣٥/١١/١٦ .

(٢) نسبة إلى نسيم باشا رئيس الحكومة فى ذلك الوقت .

وفى الموضوع نفسه يكتب " دياب " مقالاً بعنوان : (أسبوع الشهداء)، ينعى فيه أولئك الفتية الذين مزقتهم أيدى الباطشين باسم النظام، يقول فيه : (١) " شهيدان فى طنطا ، وشهيد العمال ، وشهيد كلية الزراعة، وشهيد دار العلوم ، وشهيد كلية الآداب ." ست من المهج الفتية المصرية مزقتها أيدى الباطشين باسم النظام فى أسبوع ؟ ست من الألسنة الهاتفة باسم مصر واستقلال مصر ، أسكتها المسكتون إلى الأبد . لكنهم أسكتوهم فى الأرض ليستأنفوا أنشودة الوطن وصيحة الحق مجلجلة فى السماء بين إخوانهم الشهداء السابقين المجاهدين بأرواحهم فى الآخرة كجهادهم فى الدنيا بالجوارح والقلوب . ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون﴾.(٢)

ومن القضايا السياسية ، التي خاض غمارها مع رجال السياسة والقائمين على سدة الحكم – آنذاك – قضية " سد جبل الأوليا" ويتلخص موضوع هذه القضية أن وزارة " إسماعيل صدقي " تبنت فكرة إنشاء خزان جبل الأولياء ، مع عدم حاجة مصر إليه وقتئذٍ وارتفاع تكلفته ، ومعاناة مصر من أزمة اقتصادية حادة لا تسمح لها بمثل هذه المغامرة المالية ، ورفض كثير من الخبراء فكرة هذا المشروع ، وعلى الرغم من ذلك كله أصرت الحكومة والبرلمان على تنفيذ المشروع.(٣) فما كان من الكاتب إلا أن تصدى لهذا المشروع وللقائمين عليه بمقالات أدبية تكشف

---

(١) توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ، ٢/٢٥.

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٩.

(٣) انظر توفيق دياب ملجمة الصحافة الحزبية ١/١٣٤ .

خطره ، ونية الإنجليز من إقامته ، ففى إحدى هذه المقالات ، والتي نشرها في جريدته "الجهاد " تحت عنوان " وشكت الكارثة أن تقع على يد البرلمان الصدقى " يقول " دياب " : (١) " نعم أوشكت الصاعقة التي يسمونها جبل الأولياء أن تنقضّ على رأس مصر والمصريين . وسيرجع الفضل الخالد في هذه النكبة الخالدة إلى صدقي باشا في البداية وإلى برلمانه في الختام ...ماذا فعلت اللجنة الصدقية البرلمانية ؟ هل خلعت منظار (المصرية) المثيرة وهى تنظر في كارثة لن تقع حين تقع على حزبي الشعب والاتحاد وحدهما ، وهما من هذه الأمة كالذرة من الطود أو القطرة من العباب .. فليهنأ أولئك المتحكمون في عنق مصر دون الأمة المصرية التاعسة وليهنأ البرلمان الصدقى الذي ينوى المصادقة على الكارثة ....فليهنأ الجميع إلا هذه الأمة الشقية المستعبدة ".

وغير خاف ما في المقال من سخرية وتهكم من الحكومة وبرلمانها ، فضلا عن بيان الخطر الذي سيحدق بالأمة من جراء هذا المشروع ، وقد جاء ذلك في أسلوب حماسي يثير المشاعر ويلفت انتباه الناس إلي خطر الكارثة .

وفي مقال آخر بين الكاتب نية الإنجليز من إقامة هذا المشروع ، وقد كشف فيه الكاتب النقاب عن الوجه القبيح للإنجليز ، والغرض من إقامة مثل هذا المشروع ، كما بين تعاون بعض أبناء الوطن مع الإنجليز في تنفيذه خوفا علي مناصبهم الوزارية أن يفقدوها ؛ لذا فقد اعتبر البرلمان

---

(١) جريدة الجهاد ١٩٣٢/٥/٢٤ .

هاتين المقالتين قذفا لهيئة اللجنة البرلمانية التي تولت النظر في هذا المشروع .

وأحيل "توفيق دياب" بناء علي ذلك إلي محكمة الجنايات التي قضت ببراءته في ٣ يناير ١٩٣٣ م ، وقدمت النيابة طعنا في حكم البراءة أمام محكمة النقض والإبرام التي أصدرت حكمها في ٢٧ فبراير سنه ١٩٣٣ علي " توفيق دياب " بالحبس ثلاثة أشهر وتغريمه خمسين جنيها مع التنفيذ.

وقد أشعلت شكوى البرلمان ضد "دياب" قريحته ، فزاد عنف هجومه واتخذ من البرلمان هذه المرة مادة لأسلوبه الساخر ونقده اللاذع ، فكتب مقالة بعنوان (أعجوبتان برلمانيتان) يقول فيها : ([1]) " عجب عاجب يطالعك من ثنايا أعمالهم في هذا العهد الذي في ذاته عجيب عاجب . فهذا برلمان يركب الشطط ليلتين متواليتين حيال (الجهاد وصاحبه) ([2]) ليلة ، وحيال الصحف كلها ليلة أخري . أما حيال صاحب الجهاد فقد كبر علي السادة نواب هذا العهد وعلي رأسهموكيل مجلسهم ، أن يصورلهم خطورة الكارثة التي يصيبون بها مصر إذا هم أقدموا علي إقرار مشروع جبل الأولياء. وحجتهم في ذلك أن كاتب هذه الكلمات شكك في ضمائرهم وخاطب البرلمان بلهجة لا تليق .. وقد نسي حضراتهم أن المسألة ..... هي حياة أمة أو موتها ونجاتها أو هلاكها ..... وبالله أين يقع تهديد مجلس نوابهم

([1]) الجهاد سنة ١٩٣٢ .

([2]) أي جريدة الجهاد ، لصاحبها توفيق دياب .

ورئيس وزرائهم لأشخاصنا من تهديد ذلك المشروع الوبيل لجيل مصر الحاضر كله وما يتعاقب بعد من أجيال . "

والذي همنا من هذا كله أن الكاتب استطاع أن يصور لنا جانبا من الحياة السياسية للمجتمع المصري ، وكيف كانت تدار مصالح البلد وأمورها، هذا أمر .

والأمر الثاني أن الكاتب استخدم الأسلوب المناسب مع هذه القضية وغيرها من القضايا السياسية ؛ فاتسم أسلوبه بالطابع الخطابي المثير ، الذي يضمن به انجذاب القاريء إليه من ناحية ، ومن ناحية أخري يضمن به التأثير علي الساسة والمسؤلين ، وهو بين هذين الأمرين ، يستخدم الأدلة والبراهين علي صدق كلامه وفكرته ، وهذه إحدى ركائز المقال وخصائصه .

وهناك قضايا سياسية أخري تناولها الكاتب في مقالاته ، علي صفحات جريدته "الجهاد" وأخبار اليوم ، صور فيها بعض السلبيات التي وقعت فيها الحكومة آنذاك ، مثل قضية المرتبات ، وعدم قدرة الحكومة علي الوفاء بها لأصحابها (١)

كما عرض للمشكلات التي وقعت فيها حكومة عبد الفتاح يحيي – بعد حكومة إسماعيل صدقي – فكان من أهم المشكلات التي واجهتها هذه الحكومة مشكلة الدين العام وهبوط الجنيه الإنجليزي لأزمة ارتباط الجنيه المصري المتداول بالجنيه الإسترليني ، وأتهم "محمد دياب" الحكومة بالتردد والعجز والتسويف .

---

(١) انظر مقالة "معضلة المرتبات" اللمحات ١٢٦ نشر فى أخبار اليوم عدد ٢٥ .

وكانت المحاكم المختلطة ، التي أجمع الرأي المصري علي إلغائها احدي الموضوعات التي هاجمها . كما هاجم الكاتب ضعف الحكومة المصرية ، وإسناد أمورها إلي المندوب البريطاني واتهمها بسياسة العجز والتقويض. (١)

وهكذا وفي ضوء ما سبق نستطيع القول بأن "محمد دياب" سجل وصور لنا جزءا من تاريخ مصر الاجتماعي والسياسي ، من خلال عرضه لكثير من القضايا الاجتماعية والسياسية التي كانت موجودة آنذاك ، هذه ناحية . وناحية أخري أن هذا العرض جاء بصورة أدبية وأسلوب قوي رصين تناسب وطبيعة الموضوعات التي تناولها الكاتب ، فاجتمع له حسن الأسلوب وشرف المعني .

ثالثا : استنهاض الهمم والعزائم .

مرت مصر في أوائل القرن العشرين بظروف وأوضاع سيئة ، من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وكان ذلك كله بسبب الاحتلال الذي توغل في كل هذه النواحي ، فراح يعبث بمقدرات البلاد وحقوق الناس دون رقيب أو حسيب ، فضلا عن خضوع الناس واستسلامهم لأساليبه وبطشه وإيذائه وإيثارهم البعد – أحيانا – عن ميدان المعركة والجهاد .

هذا بالإضافة إلي أن أعباء الحياة ومتطلباتها – التي أثقلهم بها المحتل – حالت دون محاربته ومناهضته ، فركنوا إلي ما هم فيه من

---

(١) انظر مقالة : سياسة العجز والتقويض ، الجهاد في ١٩٣٤/٨/٢٧ ، نقلا عن توفيق ملحمة الصحافة ص ٢٢٩ .

خضوع واستسلام حتى ولو كان علي حساب حقوقهم وكرامتهم ، وتـأخر مجتمعهم وتخلفه .

لذا فقد قام الأدباء بدور كبير وفعال ، في توعية الناس وحثهم علـي معرفة حقوقهم ، وحضهم علي العمل من أجل أنفسهم ومجتمعهم ، وتوجيه أنظارهم إلي مناهضة الاحتلال بالوسائل التي تكفل لهم الحرية والاستقلال .

وقد صدروا في ذلك عن إحساسهم بضـرورة مشـاركتهم العمليـة والوجدانية لأبناء مجتمعهم ، وضرورة توجيههم وإرشادهم إلي مـا فيـه خيرهم وصلاحهم ، والالتحام معهم ، علي أساس من العلاقـات الإنسـانية المتكاملة ، التي تقوم علي الاتصال والتفاعل ، الذي يزيد من الترابط بـين أبناء المجتمع ، ويساعدهم في إدراك مكانتهم ليس في مجتمعهم فحسـب ، وإنما في المجتمع البشري كله .

ومن ثم كان الكاتب "توفيق دياب" صاحب الحس المتوقد ، والعاطفـة الجياشة الصادقة ، والوطنية العالية ، والغيرة المخلصة ، لا يتـوانى فـي توجيه أبناء مجتمعه إلي كل ما فيه صلاحهم وتقدمهم في كـل المسـتويات العلمية والحضارية والاقتصادية والسياسية . ففـي محاضـرته "عناصـر الإيمان في قلوب الشباب " يدعو الكاتب الشباب إلي العمل ، والأخذ بوسائل العلم الحديثة ، ويوصيهم بأن يكونوا بأحداث دنيـاهم علـي صـلة ، وأن يتحلوا في كل ذلك بعناصر الإيمان ، وبأسـلوب حماسـي يعبـر الكاتـب قائلا:([1]) " إن العلم في عصركم أغزر وأسبابه أوفر ، وأشعته أعم وأبهر ، وفي متناولكم وانتم في مقتبل الحياة الانتفاع بكل كلمة ملهمـة ، يقولهـا

([1]) اللمحات ٣٥ : ٤٥ محضره ألقيت فى نوفمبر ١٩٤٥ .

مصلح ساعة يذيعها بالمذياع من أقاصي الشرق أو أقاصي الغرب ، فان لم يذعها اللاسلكي صوتا مسموعا ، فهو يذيعها لفظا مطبوعا بعد ساعة أو ساعات . كونوا بأحداث دنياكم علي صلة . كونوا أبناء عصركم في كل جد، ولا تكونوا أبناء عصركم في كل هزل . " .

ثم يحاول الكاتب زرع الثقة في نفوس الشباب ، وذلك بتذكيرهم بمالهم من مجد تالد، متمثلا في أجدادهم القدماء ، وآبائهم العرب ، وان شبابا بمثل هذا التاريخ وذلك الحال لجدير بالأريحية ، بل جدير بأن يطفر الطفرة العظمي التي يزعم الزاعمون أنها محال . (١)

ثم يري أنه لن يتحقق لهم ولا لمصر ما يريدون ، إلا إذا اكتملت عناصر الإيمان في قلوبهم عندئذ تسمو عزائمهم بمصر . وبأسلوب خطابي، يلح الكاتب علي الشباب بأن يعرفوا قدر أنفسهم . فيقول : " فمتي يعرف الناس حقيقة أنفسهم ، كما عرفوا حقيقة الذرة متي يعرف الشباب المصري أنه روح قبله جسما يضعف ، أو رغبه تهفو أو شهوة تعبر . والله لو اكتملت في قلوب الشباب عناصر الإيمان ، إذن لسمت عزائمهم بمصر حتى لتكاد أرضها من باذخ مجدها تشامخ السحاب . إذن فلن تجن همتك أيها الفتي إذا أيقنت بأنها مستمدة من قدرة لا تخبو . أيها الشباب المرجى ، إن مصر تستقبل عصرا جديدا مجيدا ، فكونوا بناته وكونوا رجاله والله معكم وهو نعم المولي ونعم النصير ."

فهذه دعوة عامة للشباب بأن يتسلحوا بعناصر الإيمان ، ومكارم الأخلاق ، حتى يستطيعوا الارتقاء بأنفسهم ، والنهوض بمجتمعهم . وهذه

---

(١) انظر اللمحات ص ٣٦، ٣٧ محضره ألقيت فى نوفمبر ١٩٤٥ .

بلا شك دعوة في محلها ومكانها وتصلح لأن تكون لشباب الأمة علي مر العصور والأزمان ، وبخاصة في عصرنا هذا ، الذي خبت فيه جذوة الإيمان من قلوب الشباب . وقد استخدم الكاتب أسلوب الإنشاء من استفهام وطلب ونهي وأمر ونداء ليستثير حماستهم ويقوي من عزائمهم . ([1])

ولم يقتصر " الكاتب" في دعوته هذه علي الشباب فحسب ، وإنما وجهها – أيضا – لأولئك القائمين علي الأمر ، لبحثهم علي العمل لصالح مجتمعهم ، ومحاولة النهوض به في كل المجالات ، إذ أنه لا خلاص لأبناء الأمة من الرق والاستعباد والاحتلال ، إلا إذا كان هناك من يحرص علي مصالحهم ، ويأخذ بأيديهم إلي سبل التقدم والرقي ، ومن أجل ذلك يقترح الكاتب علي الحكومة إنشاء مجمع علمي ، يناقش فيه العلماء بكافة تخصصاتهم كل ما يمكن القيام به من أجل مصر ، ويربط ذلك كله "بصحة العزائم" فيقول في مقاله "إذا صحت العزائم" : ([2]) " إذا صحت العزائم هانت الصعاب ..... لن يزال تذليل المصاعب رهنا بصدق العزائم ، ولن تزال الأمم بأخلاقها علوا وانحدارا وإيجابا وسلبا . فالعيب ليس في هذه الحكم التي طالما مضغناها بأفواهنا حتى أذبناها ، ثم لفظناها محاجة مع اللعاب ، وإنما العيب فينا – في نفوسنا التي تشهد اشتعال الهمم في كبريات الأمم تحفزا للغد الحافل ، ثم تحتفظ هممنا بجمود الثلج وبرودته . علي أن في الثلج نارا كامنة تنتظر ما يوقدها ، كلهيب البرق ينقدح باصطكاك السحب.".

([1]) انظر المقال كاملا – اللمحات من ٣٥ : ٤٥ المحضرة نفسها .

([2]) اللمحات ١٢٤ مقال نشر فى أخبار اليوم عدد ٢٥ .

هذا هو الوضع الذي يحتاج إلـــي اســـتنهاض تلـــك الهمـــم الفـــاترة الضعيفة، ولا يجد الكاتب بدا من الصراحة والمكاشفة ، واستصراخ همـــم المسؤوليين والقائمين علي الأمر وتوجيههم إلي ما فيه نفعهم ونفع بلادهم، فيقول في المقال نفسه : "فمن لنا بحساسية جديدة تذيب ثلوجنـــا النفســـية كلما اصطكت – لا أقول بثلوج الأمم الأخرى – بل بوقود عزمها المستعر . إني أهيب بصاحب الدولة رئيس الوزراء ، وإني لمن أعلم الناس بغيرتـــه علي عزة بلاده وسبقها في كـــل ميـــدان مجيـــد ، كمـــا أهيـــب بزملائـــه المخلصين،..... أهيب بهم لأن يحشدوا منذ اليوم لمواقف مصر وعمرانها وشتي وجوه إصلاحها ، مجمعاً – ولو محليا – . إن المجتمع العلمي الذي صحب (نابوليون) إلي هذه الديار منذ زهاء قرن ونصف قرن ، أسدي إليها أيادي مخلدة في كتبهم ، ماثلة في عصرهم . " .

ويصل " الكاتب" في دعوته إلي أبعد من ذلك ؛ فيطالـــب باســـتدعاء خبراء من ذوي الأختصاص العالميين ، ليمحصوا ويبعثوا البعـــث الكامـــل الشامل لكل كمين ودفين من موارد الطبيعة في مصر ، ويخبرونا وينبئونـــا بالجديد في الزراعة والصناعة ، والتربية الحديثة والتعليم الحديث ، حتـــى تصير مصر قطعة من أوربا الجادة المزدهرة ، وبأسلوب صريح واضح قائم علي الحث والحض واستنهاض الهمم يعبر "توفيق دياب" في مقالته "عهـــد مصر الجديد" قائلا : ([1]) " ..... ما أقصد بهذه الكلمـــات إلـــي اســـتتمام الاستقلال وإنهاء الاحتلال ، فهذا مطلب يسري مع دم الحياة فـــي شـــرايين المصريين والعمل له في يومه القريب مكفول ..... وإنما أقصد إلي نـــواح

([1]) اللمحات ٩٨ ، ٩٩ مقال نشر فى أخبار اليوم عدد ٢٢ .

أخري أغفلتها العهود الماضية ، ولا تحمل إغفالها مطالب الحياة في العصر الجديد . أقصد البعث الكامل الشامل ، لكل كمين ودفين من موارد الطبيعة في مصر . أقصد إلي استدعاء خبراء من ذوي الأختصاص العالميين ، يمحصون مصر تمحيص علم وفن ، واستيعاب واستقصاء . فلا يتركون فيها بقعة ولا رقعة من عامر أو غامر ، إلا درسوا سطوحها وأغوارها ، ماذا فيها من خامة خبيئة ، أو خير مجهول ، ولا يتركون حاصلا من حاصلات الزراعة في مختلف أنحاء العالم ، إلا أنبأونا بما يجود منها في تربتنا وما لا يجود . " .

ويواصل "الكاتب" توصياته وتوجيهاته للقائمين علي الأمر أن يأخذوا بوسائل الحضارة والعلم الحديث ، والاحتكاك والانفتاح علي الغرب ، بما فيه صالح مجتمعنا ورقيه وتقدمه علميا وصناعيا وزراعيا ، وتربويا ، عندها تعيش مصر في عزة ومنعة وقوة ، وهو يشير إلي هذا في قوله : " أقصد أن تصبح مصر قطعة من أوربا الجادة المزدهرة ، لا أوربا اللاهية المتداعية ، أقصد أن تخلق مصر خلقا جديدا ، وأن تبعث من رقودها الطويل بعثا جديدا . أطفالها في البيوت والمدارس ، وطلابها في الكليات والمعاهد ، وزراعها في الحقول ، وعمالها في المصانع . فإن فعلنا تضاعف لدينا إنتاج العقول والسواعد ، وتسامت الأخلاق فوق مستوي الدنايا والمفاسد . وأصبحت مصر المستقلة – مصر القوية الغنية المستنيرة، المساهمة في البر والبحر والجو بنصيبها من آيات العزة والسؤدد – أو أقل من آيات الحياة " .

فهذه دعوة واضحة ، وثمارها مأمولة مرجوة ، لو صحت عزائم الآخذين بها والعاملين علي تحقيقها . فهذه الدعوة نموذج فريد في استنهاض الهمم والعزائم ، يمكن أن تأخذ به كل أمة تريد لنفسها التقدم والرقي والعزة والكرامة . كما أن أسلوبها وكلماتها واضحة علي قدر وضوح معانيها .

وبجانب أسلوب الدعوة إلي استنهاض الهمم والعزائم والذى أرتكز علي النهي والأمر والطلب والنداء ، والاستفهام ، لجأ " الكاتب " إلي أسلوب تربوي عال ، يدل علي خبرته وحنكته الأدبية ، وذوقه الرفيع في تنويع الأسلوب بما يتواءم مع قارئيه ومتلقيه ، هو أسلوب التشجيع ،وإثبات صفات القوة والرجولة والبسالة لأبناء الوطن في كل المجالات والعلوم والمعارف والآداب والفنون ، ولو لم تكن هذه الصفات موجودة فيهم ، وإنما ذكرها لتزيد من به تمسكا بها . وتثير الحمية والغيرة في نفوس الآخرين ؛ فيحاولون التخلق بها ، والسير علي هداها . ففي مقالته "مصر الفتية" يعبر الكاتب عن ذلك قائلا : ([1]) " ..... وهل يجهل أحد أن شعور الكبرياء والكرامة ، والاعتزاز بالوطن المستقل الحر – شعور يعمل في النفوس عمل السحر ، فيسمو بها إلي غاية ، ما تستطيعه الطبيعة البشرية ، من كدح متواصل في سبيل الاحتفاظ بحرية الوطن واستقلاله . فالعلماء ، وأهل الفن ، والأدباء ، وذوو الرأي ، والتجار، والصناع ، وكل من رواه وروي أباءه ماء النيل ، إنما هم تحت راية الوطن المستقل الحر

([1]) اللمحات ٦٣ من مقال"مصر الفتية " نشر فى الجهاد ديسمبر ١٩٣٣ .

جنود بواسل ، لا فرق بينهم وبين الجيش المحشود فى ميـــادين القتـــال ، سوى اختلاف فى أنواع السلاح ووسائل الدفاع ".

ولا يزال " الكاتب " يواصل دعوة أبناء وطنه – مـــن كـــل الطوائـــف والفئات – ويحثهم على العمل الدءوب ، ومواصلة الليل بالنهـــار ، حتـــى يستقل الوطن وينعم أبناؤه بالحرية والاستقلال (١)، ولاسيما الشباب الـــذين هم أمل كل أمة فى يومها ، وعملها الماثل فى غدها . هـــم اليـــوم غـــرس ونبات ، وهم غدًا شجر وثمر ، لو أنهم أحيوا فى قلوبهم إيثار الوطن على أنفسهم ، لو أنهم خرجوا للعمل دون انتظار وظيفة ، لو أنهم دخلـــوا فـــى ميادين التجارة والعمل والصناعة والزراعة ، لو أنهم تخلـــوا عـــن حيـــاة الترف والبحث عن الدعة المميتة لو أنهم أخذوا فى كل ذلك بوسائل العلـــم الحديث فى كل علوم العصر ، لو أنهم عرفوا أن للحياة غاية ، إذن لبنـــوا مجداً عالياً ، كما بناه أجدادهم القدماء ، وأباؤهم العرب .الذين بنوا مجدهم على الرجولة والأخلاق ، وكبار المساعى . ثم أحيوا دولة العلم وأضـــاءوا ظلام القرون الوسطى فى بلاد الغرب (٢)

مما سبق فى هذه الدعوة يمكن أن نقف على عدة أمور :

أولاً : يتمتع توفيق دياب بحس وطنى عالٍ حريصٍ على مقـــدرات الـــوطن واستقلاله .

---

(١) انظر اللمحات ٩٦ مقال " متى تضىء شمسنا "نشر فى أخبار اليوم عدد ٢١ .

(٢) انظر اللمحات ٢٠٦ : ٢١٠ مقال " الوصايا العشر للشباب ، ومقال " الشـــهادة الدراســـية والرجل "ص ١٣٨: ١٤٠ الأول نشر فى أبريل ١٩٤٦ والثانى فى فبراير ١٩١٢ .

ثانياً : المعايشة الحقيقية لأوضاع المجتمع ومشكلاته ، وهذه سمة الأديب الحق الذى يشعر بهموم مجتمعه ومشكلات أفراده .

ثالثاً : الأسلوب الأدبى الذى عبر به عن الدعوة تعبيراً واضحاً ، ودلّ على صدق التجربة وإخلاص الأديب لها ، وهذا أقصى ما يمكن أن يتمتع به الأديب أى أديب ، أن يجمع بين صدق العاطفة وروعة الأسلوب والأداء .

رابعاً : أن دعوته إلى استنهاض الهمم والعزائم ، لا ينتهى أثرها بانتهاء وقتها ، وإنما تصلح لكل أمة فى كل وقت وفى كل مكان ، وهذه سمة أخرى للأدب الهادف الذى ينبغى أن يسجل فى سجل الفن الأصيل .

خامساً : استطاع الكاتب أن يطلعنا على جانب من حياة المجتمع المصرى – آنذاك – ما كان للتاريخ أن يصورها كما صورها الكاتب بحسه ونبضه.

سادساً : ثقافة الكاتب الواسعة والمتنوعه ساعدته فى الإقناع والتأثير فى المتلقين ولعل هذه إحدى خصائص المقال الأدبى ، أن يكون حاملاً فى طياته الأدلة والبراهين على صدق الفكرة وجديتها وطرافتها .

* * * * *

* * * *

* * *

رابعاً : قضايا سياسية عربية :(*)

لم يكن " توفيق دياب " بمنأى عن الأحداث والقضايا التى تحدث فى أقطار أخرى عربية وغير عربية ؛ فما من قضية أو حدث يهم شعباً من الشعوب ، ويحيط به علمه إلا تناوله بما يتناسب معه بأسلوب أدبى ونزعة إنسانية ، وإحساس مرهف ، مشاركة وجدانية وعملية منه لأصحاب تلك القضية أو ذاك الحدث .

ومن القضايا والأحداث التى دافع فيها " الكاتب " عن العروبة عامة وعن الشعب الليبى خاصة قضية المجاهد الكبير " عمر المختار " الذى اعتقله الطليان وحكموا عليه بالإعدام أمام شعبه ، وكان مما دفع "دياب " للكتابة عن هذا الحدث ، أن " صدقى باشا " رئيس وزراء مصر – آنذاك – استباح إعدام الإيطاليين " لعمر المختار " فى مقال له نشره فى إحدى الصحف الرسمية ، بحجة تنفيذ القوانين فى " ليبيا " فما كان من " توفيق دياب " إلا أن كتب مدافعاً عن " عمر المختار " ومفندًا آراء " صدقى باشا " ورادًا عليها ، وقبل أن نأتى لما كتبه " دياب " نشير إلى انه اعتبر هذا الحدث حدثاً يمس العالم الإسلامى كله ، وذلك بسبب ما صنعه هذا المجاهد بالغزاة فى ليبيا من كفاح أطار نومهم وقضّ مضجعهم ، مما كان سبباً فى الحكم عليه بالإعدام .

وفى هذا الموضوع يكتب " دياب " مقالة بعنوان " جريدة صدقى باشا ومصرع الزعيم عمر المختار " يقول فيه (١) :" لقد جرح صدقى باشا شعور العالم الإسلامى والأمم العربية جرحًا بالغاً فى غير دافع آخر إلى

(*) المقصود بالقضايا السياسية العربية ، تلك الأحداث التى وقعت خارج نطاق المجتمع المصرى آنذاك وشارك الكاتب فيها بقلمه تأييداً لها أو اعتراضا عليها أو مشاركة وجدانية منه لأهلها.

(١) جريدة الجهاد فى ١٩/١٠ ، ١٩٣١.

هذا العمل الجارح . والآن تفضل فاقرأ لبعض فقرات من مقال صدقى باشا: (١) " أما أن العالم الإسلامى جزع لمقتل عمر المختار فذلك ما لا شك فيه (نحن متفقون مع لسان صدقى باشا) . لكن علاقة الممالك بعضها لا تتأثر بما يجرى فى داخلية إحداها أو مستعمراتها أو أملاكها – (صامتين يا مسلمين) – هو مجاهد فى نظر قومه ومن يحسون باحساسه – (أما لسان حال صدقى باشا – فيحس إحساسًا آخر) – لكنه حوكم محاكمة تستند إلى قانون البلاد التى يتبعها ثم نفذت فيه إرادة الله ويراه ذلك القانون – (هل من تبرير لشنق عمر المختار أبلغ من هذا التبرير ، خصوصًا وهو صادر عن لسان حزب مصرى لا حزب فاشييسى إيطالى ؟".

وكما هو واضح من هذه المساجلة التى يورد فيها " دياب " فقرات من مقال " صدقى " ويرد عليه مفنداً آراءه فى تهكم وسخرية أنه اعتبر مقال " صدقى " جرحا بالغا للعالم الإسلامى وللأمم والشعوب العربية . ويزيد الكاتب من سخريته وتهكمه من كلام " صدقى " فى إعدام " عمر المختار " فيقول : " ... وإذن فلا تحزنوا يا أمم العربية فقد كان موت " عمر المختار " جزية ، لا بطولة وتضحية ! ولا تحزنوا لأن الشهيد خرج على الأنظمة الإيطالية القائمة فى طرابلس ، فكان جزاؤه الشنق مهما كان نبل مقصده وشرف غايته – لا تعجبوا يا أمم العربية فهذه فاشيسيته حزب الشعب الذى يرأسه صدقى باشا تثير عواصفها عليكم وعلينا كما يثير الطليان عواصفها على الطرابلسيين !؟

---

(١) الخطاب هنا من " دياب " للقارىء.

إن أهم ما يميز هذا المقال ذلك الأسلوب الساخر ، والتهكم اللاذع ، والقدرة على المساجلة وتفنيد الآراء ، وهذه طبيعة الكاتب الأديب المتمكن من أدوات فنه وكتابته .

هذا وقد فتح " دياب " جريدته " الجهاد " لهذا الموضوع . فتابعت أخبار " عمر المختار " عقب إعتقاله وحتى إعدامه (١).

******

ومن القضايا الإسلامية والعربية الإقليمية التى تناولها "توفيق دياب" فى كتاباته ، ودافع عنها بجد و إخلاص ، قضية فلسطين وشعبها ، تلك القضية الشائكة ، والتى هي لب الصراع العربى الإسرائيلى على مدار أكثر من نصف قرن ، ومازالت حتى اليوم تلاك على الألسنة ، وتطرح فى المحافل الدولية الرسمية وغير الرسمية ، لكن دون جدوى أو حل يخرج هذا الشعب من محنته ، والمسجد الأقصى من أسره .

وقد كان لـ" دياب " منزلة خاصة ، ومكانة رفيعة فى نفوس أبناء فلسطين ، وكان له علاقة طيبة بهم ، توجت بزيارته إلى فلسطين فى يونيو ١٩٣٤ م ، وكان فى استقباله عند بلدة " بيسان " (٦٠٠) ستمائة فارس ، وأوقفوا القطار وحملوه على الأعناق ؛ وذلك لما كان يوليه "دياب" من اهتمام بفلسطين وأهلها على صفحات جريدته (الجهاد)، فقد شاركت فى الدعوة إلى إنقاذ فلسطين بإقامة الندوات وإلقاء الخطب ، والتحقيقات ،

---

(١) انظر الأعداد من ١٨ سبتمبر ، ١٩٣١ ، وحتى ٢١ سبتمبر ١٩٣١ . وهى الأعداد الأولى للصحيفة.مما يؤكد اهتمام صاحبها بهذا الموضوع .

والمقالات ، وكلها تبين فداحة وعظم الجرم الذى ارتكب فى حق فلسطين وشعبها . (١)

ومن المقالات التى كتبها "دياب" فى هذه القضية مقالته " عمل منكر لا يجوز " استنكر فيها سفر عمال من مصر لمرافقة الجيش البريطانى إلى فلسطين ، ويصف هذا العمل بالنذالة والسقوط لقداسة الرابطة العربية ، فيقول : (٢) " عمل منكر لا يجوز – خدمة مصريون يرافقون الجيش البريطانى إلى الشقيقة فلسطين ... ذلك الأمر الذى حدث فى غيبة صاحب الدولة وزير الداخلية ورئيس الوزارة " مصطفى النحاس " باشا هو أن مائتين أو أكثر من الخدمة المصريين رافقوا القوة البريطانية التى سافرت فى الأيام الأخيرة من مصر إلى فلسطين كطهاة أو سعاة أو ما يشبه ذلك من الخدمات التى يقولون أنها شخصية ."

وبعد إعلان هذا الخبر بهذه الطريقة التى نلمح فيها التهكم والسخرية، يعلن صراحة استنكاره لهذا العمل واصفا إياه بأشنع الأوصاف، فيقول : " ونحن نستنكر مرافقة مصريين للجيش البريطانى إلى فلسطين مهما يكن العدد الذى يبلغونه و الطبقة التى ينتمون إليها أو نوع الخدمة التى يؤدونها للجيش البريطانى أو للضباط البريطانيين أفرادًا وسواءً اتسموا باسم العمال أو باسم – خدمة خصوصيين – نستنكر هذا العمل بكل قوة ونصف المقدمين عليه من الخدم أو من العمال بالنذالة والسقوط ، ونحمد الله أن تكون الكثرة العظمى من أهل طبقتهم بين المصريين أكرم

---

(١) انظر طائفة من هذه المقالات فى الجهاد من ٢٨ /٥ وحتى ٣٠ /٥/١٩٣٦ .

(٢) الجهاد بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩٣٦.

على أنفسهم وأصون لمروءتهم و أفهم لقداسة الرابطة العربية مـــن هـــذا النفر الأحمق المرذول أو المضلل المأفون " .

ولما كانت القضية تطرح على المؤسسات الدولية (مجلـــس الأمـــن والأمم المتحدة) فقد تابعها " دياب " وبين أنه لا فائدة ولا جدوى من تلـــك المناقشات والمنازعات فى أروقة هذه الأماكن ، وكأنه يتحدث بلسان حـــال اليوم ، ففى كلمته الأذاعية " هيئة الأمم هل فيها غَنَاء ؟ يقـــول موضـــحاً هذه الصورة : (١)

" هذه دورة أخرى تنقضى من عمر هيئـــة الأمـــم المتحـــدة دون أن يستطيع مجلس الأمن أو اللجنة السياسية فى تلـــك المنظمـــة العالميـــة – اهتداء إلى حل رشيد لقضية فلسطين ، ... عام آخر ينقضـــى تكثـــر فيـــه جلسات خاصة بهذه القضية البديهية البينة ويشتد فيـــه العـــراك .. بـــين الأهواء المتضاربة والغايات المتنافرة ، والحق يرتفع صوته علي ألســـنة الوفود من العرب وألسنة القلة من أنصار الحق بين الدول ، ولكنه صـــوت محجوب عن أسماع أصمها ضجيج الشهوات ".

ثم يرى أنه لا حل لهذه القضية إلا باتحاد العرب ورجولتهم ، فيقـــول فى صراحة ومكاشفة ، وليتها تجد اليوم آذانا صاغية وقلوبًا واعية : " لا أمل إذن فى مجلس الأمن حتى يأتى عدل ، ولا فى هيئـــة الأمـــم حتـــى إذا تمخضت عن كلمة حق يلفظها اللسان ...لا نجاة للعرب إلا برجولة العرب، ووحدة العرب ذلك ما نرجو وذلك ما نترقب ".

---

(١) محاضرة إذاعية فى ١٩٤٨/٨/٤ .

وقد تابع "دياب" تطور المشكلة الفلسطينية وظهورها علي صفحات جريدة الأخبار ، وأخذ يهاجم إسرائيل وكل من يساندها ، ووصفها بأنها طراز وضيع من العصابات الغادرة ، وأنها مولود تاعس جاء من رحم شيطان يمكن أن يترك أثارا وخيمة في هذه المنطقة (١) ، وقد تحققت نبوءة"دياب" وأصبحت "إسرائيل" تشكل خطرا علي منطقة الشرق الأوسط ، والعالم العربي كله .

ثم يواصل "دياب" هجومه علي الصهيونية ، فيصفها بأنها سم قاتل ، وجرثومة خبيثة تسببت في وجود هذا المولود اللقيط بعد أن غذته مال السحت والحرام ، ونشأته أسوأ تنشئة وأحط تربية ، يقول في مقالته : "جريدة نيويورك" تايمز الصهيونية ، تحرض الاستعمار علي الكتلة العربية"، (٢) " هل هناك سم أنقع من هذا السم الذي دسته في هذا المقال للعرب ، كاهنه الصهيونية العالمية ... جريدة التايمز هل هناك أخبث أو أفتك من حمة هذا العقرب .... لولا أن القوة العربية العقيدة لا يؤثر فيها سم العقارب .... ؟ لولا أن الدول الغربية ... وبخاصة أمريكا وبريطانيا وفرنسا احتجت ... أو لعلها قد احتجت أكثر تحرزا حذرا من مخاطر الاندفاع في مغامرات صهيونية جديدة ... أو في خدمات استعمارية وخيمة العواقب في الشرق والغرب علي السواء . وأكبر الظن أن يكون كاتب مقال النيويورك أو نافث سمومه فيه علي الأقل هو "أبا أيبان" سفير اسرائيلهم

---

(١) انظر مقالته " الأمة العربية تغلي حفيظتها " الأخبار ، ١٩٥٥/١٢/١٧ م .
(٢) جريدة الجمهورية في ١٩٥٦/٣/٢ م .

في واشنطن وكبير ممثليها في الأمم المتحدة . وذلك لما هو معهود فيه الثعبانية الصهيونية والكفاية الممتازة المتفانية في تمجيد إسرائيل " .

وهكذا يؤدي "دياب" دورا واضحا ومهما في توعية الرأي العام ، وإيقاظ الضمير الوطني في مواجهة ألاعيب الصهيونية ، ومن ثم يمكن الوقوف علي عدة نقاط :

أولها : أن "دياب" تنبه إلي خطورة هذه القضية ، ونبأ العرب إلي خطورتها وخطورة إسرائيل ، ليس علي الفلسطيين فحسب ، وإنما علي العالم العربي كله . والواقع اليوم يؤيد هذا التنبؤ ، فإسرائيل اليوم تفتل وتشرد الفلسطنين ، وتتوعد كل من يريد إغضابها ولو بالكلمة . كما أنها تضرب بكل القوانين والأعراف الدولية عرض الحائط ، ومن ورائها أمريكا تؤيدها وتساندها وهذا ما تنبأ به .

وصوره "الكاتب: منذ أكثر من نصف قرن .

ثانيها : أن "دياب" رأي الحل الناجح لهذه القضية ، والخروج من هذا الخطر ، هو رجولة العرب واتحادهم ، وقد قال هذا الكلام والعرب كانت فيهم رائحة الاتحاد والتجمع ، فما باله لو كان حيا واطلع علي حال العرب اليوم ، ومدي ما هم فيه من تفرق وتشرذم وضعف ، حتى غدت إسرائيل تهددهم جميعا . فماذا كان قائلا . ؟.

ولعل هذا الحل التي اقترحه "دياب" هو الحل الذي ينادي به الواقع ، وينادي به العقلاء من المفكرين والسياسيين والأدباء .

ثالثها : أن كل ما سبق جاء في إطار أدبي وأسلوب رائع ،جمع الكاتب بين الواقعية السياسية ، والاجتماعية وبين الحاسة الأدبيـــة الراقيـــة التي استخدم فيها الخيال والتصوير فكانت مقالاته وأحاديثه قطعـــا أدبية نابعة من عاطفة جياشة وإحســـاس مرهـــف ، وملامســـة للواقع.

* *

وهكذا طوف بنا الكاتب الأديـــب " توفيـــق ديـــاب " بـــين القضـــايا والمشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية ، واســـتطاع مـــن خلال هذا الطواف أن يقدم لنا صورة حية نابضة ناطقة لعصـــره ، لونهـــا الكاتب بمشاعره وأحاسيسه وعاطفته ، وأسبغ عليها من بيانه وفصـــاحته وأدبه ما جعلها خالدة في سجل الفن الأصيل ، لا تـــذوي ثمرتهـــا بانتهـــاء مناسبتها ، وانقضاء ساعتها ، إنما هي صالحة للبقاء مستقلة عن طواريء الحدثان .

﴿ الفصل الثالث ﴾

﴿ الخصائص القنية لنثر محمد توفيق دياب ﴾

توطئة :

قبل أن نخوض في الخصائص القنية لنثر "دياب" يجدر بنا أن نقف لنسجل أهم الخصائص العامة لهذا النثر ؛ ولكي نصل إلي هذا ينبغي أن نعرف – بإيجاز – مفهوم الأسلوب الأدبي حتى نستطيع بعد ذلك تحديد خصائصه ومقوماته القنية لدي كاتبنا "توفيق دياب" .

مفهوم الأسلوب الأدبي : دار كلام كثير حول تعريف الأسلوب ، ونحن لا نريد الخوض في هذا الكلام ، وإنما نريد أن نضع تصورا عاما للأسلوب الأدبي ، حتى ننطلق منه إلي استظهار القسمات العامة لأسلوب "دياب" الأدبي .

ومن أبرز هذه الأقوال في الأسلوب ، أنه هو طريقة الأداء أو طريقة التعبير التي يسلكها الأديب لتصوير ما في نفسه . أو لنقله إلي سواه ، بهذه العبارات اللغوية . أو هو طريقة تأليف الألفاظ للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير (١) .

أو هو : اختيار الألفاظ وترتيبها في شكل له أثره وطابعه في اللغة المستعملة ، وهذه التعريفات للأسلوب ، تعني المفهوم العام للأسلوب بغض النظر عن الفكرة ، ولكن الأسلوب الأدبي ، ينبغي أن تكون له سماته وخصائصه التي تنبثق من تعريفه ومفهومه ، ومن ثم يمكن أن نقول أن

---

(١) الأسلوب للشايب – طبقة ٦ ، ١٩٦٦ النهضة المصرية .

الأسلوب الأدبي ينبغي أن تتوافر فيه – بجانب ما سبق – اللباقة والمطابقة والقوة ، والسهولة وبلاغة اللفظ الذي يثير الفكرة التي تعرض الموضوع ، وتمنح الكلام سمات مميزة وبارزة ، ويكون لها أثرها عند القراء .

وعلي هذا الأساس يمكن أن ننظر إلي نثر "توفيق دياب" من زاويتين اثنتين :

أولهما : السمات الفنية العامة ، وتعني السمات التي اتسم بها الأسلوب نتيجة لتفاعل الكاتب مع الظروف المختلفة . التي أدت دورا كبيرا في نوعية الأسلوب وشكله .

ثانيتهما : السمات الفنية الخاصة . وتعني الأدوات الفنية واللغوية التي استخدمها الكاتب لإبراز أفكاره ومضامينه .

أولا : السمات الفنية العامة:

امتاز نثر "توفيق دياب" بعدة خصائص فنية عامة ، تمثل الإطار العام لهذا الفن بكل أغراضه وقضاياه ، كما أنها تمثل – أيضا – الدوافع الحقيقة التي أسهمت بدورها في ظهور هذا النوع من الأدب .

وإذا أنعمنا النظر ودققنا الملاحظة في نثر "دياب" نجد أنه اتسم بعدة خصائص من هذا النوع ، ومن أهمها :

(أ) التفاعل والتجاوب مع الظروف .

والمقصود من هذا أولا هو الظروف التي تصاحب مولد العمل الأدبي نفسه وظروف الجمهور والمتلقي ، وظروف الزمن المحيط به ، ومعني هذا أن الكاتب لا يستطيع أن يبدأ في عمله الأدبي حتى تتوافر له هذه الظروف

وذلك التفاعل معها ، فهذه الأشياء تعد الملهمة التي تبدأ منها حياة أدبه . (١)

ومعني ظروف العمل الأدبي ، أن يكون لدي الكاتب ما يقال أو يكتب، وأن يكون فاهما ما يريد أداءه فهما دقيقا وجليا ، ثم يحرص علي أدائه كما هو في دقة ووضوح .

ومعني ظروف الجمهور أو المتلقي : هو مدي التلاقي بين الكاتب وجمهوره ؛ فالكاتب المجيد ذو الذهن الخصب بالأفكار ، سرعان ما يكتسب ثقة قارئه أو مستمعه ، إذا عبر عما في نفسه وداخله حقا . مما يجعله ذا صبر وأناة في متابعة الكاتب بانتباه ويقظة ، بل ينبغي ألا يكون الكاتب جالسا إلي نفسه يحادثها في حوار منفرد ، بل يجب أن تكون الكتابة – ما دام القصد منها توجيه القارئ أو المتلقي – حوارا بينه وبين القارئ ، ويتعين عليه أيضا أن يعني بالتعبير عن نفسه – إذا أراد – تعبيرا أكثر وضوحا ؛ بحيث يرغم القارئ علي أن يفكر ذات التفكير الذي يدور بخلد الكاتب لحظة كتابته . (٢)

أما عن ظروف الزمن المحيط به ، فان الكاتب يتمتع بإحساس أكثر رقة ورهافة من غيره ، ونظرة ثاقبة لبواطن الأشياء لا لظواهرها ، ومن ثم فانه عند اختياره موضوعا لكتابته ، ينبغي أن يراعي فيه ظروف البيئة والمجتمع الذي يعيش فيه ، بكل تقاليده وعاداته ، فلا يأتي في عمله الأدبي بما يصطدم مع واقع عصره وبيئته ، وأن يكون عمله نابعا من معطيات

---

(١)انظر الأسلوب ، د/ محمد كامل أحمد جمعه ، مكتبة القاهرة الحديثة ط ٢ ، ١٩٦٣، ص١١ .
(٢)انظر ، مختارات من شوبنها ور ، ص ٨٥ .

مجتمعه وإشكالات عصره حتى يكون هناك نوع من التلاقي بينه وبين نفسه وجمهوره وعصره .

فإذا ما توفرت هذه الظروف وذلك التفاعل معها فلن يعجز الكاتب أبدا عن التعبير عن نفسه وموضوعه بأكثر الطرق بساطة ، واستقامة ، من خلال تخيره للكلمات الفصيحة الدقيقة المعني ، المتلائمة مع أخواتها ، عندئذ تطمئن عناصر العبارة في موضعها دون إكراه ، ويجمع الأسلوب بين وضوح الفكرة وجمال التصوير . ([1])

وإذا نظرنا إلي نثر "توفيق دياب" نجد أنه اختار موضوعاته بدقه بالغة ، بحيث تلاءمت وتفاعلت مع الظروف المحيطة بها في المجتمع ، حتى أنها من شدة تفاعلها وتلاؤمها مع القوي المختلفة تكاد تكون صالحة كنموذج أدبي إنساني لا تذوي ثمرته بانتهاء مناسبته ،

ومن الموضوعات التي توافق فيها الكاتب مع الظروف المحيطة به ، محاضرته "ثروتنا الخلقية" ؛

وعن سبب اختياره لهذا الموضوع يقول "محمد دياب" : ([2]) " ..... أما الثروة الخلقية فتعبير أزعم أنه جديد ، ألقي في روعي من حيث لا أحسب ؛ ذلك أنني أردت اختيار موضوع لهذا المقال، فلبثت بضعة أيام كلما عرض لي موضوع زهدت فيه ، حتى صحوت ذات صباح ولساني يقول : (ثروتنا الخلقية) فأيقنت أن النفس الباطنة كانت يقظى تشتغل وتبحث ، حتى اهتدت إلي هذا الموضوع أو هذا الاكتشاف " .

([1]) انظر الأسلوب أحمد الشيب ص٤٨

([2]) اللمحات ١٤:١٩ .

ونلحظ من هذا أن الكاتب الجيد يعاني معانـــاة كبيـــرة فـــي اختيـــار موضوعاته ، فإذا ما وفق في اختيارها انتقل إلي مرحلة أخري من التجاوب والتفاعل ، فيسأل نفسه ويعيد السؤال مرة بعد مـــرة عمـــا إذا كـــان هـــذا الموضوع مقدرا له الحياة والنماء أم الموت والفناء ؟ وهل فيه من الأفكار والمعاني التي تعينه علي أن يأخذ القالب اللفظـــي ؟ وأي عـــلاج للفكـــرة سيناسب القالب الأدبي وفي الإجابة عن كل هذه الأسئلة التي تدور في خلده سر بقاء العمل الأدبي وخلوده ، واقتناع الكاتب بجدوى إنتاجه . وهذا هـــو التفاعل والتجاوب مع الظروف المحيطة بالنص الأدبي وصاحبه . ([1])

وإذا أنعمنا النظر في نثر "دياب" نجد أنه من هذا النوع الذي راعـــي فيه الكاتب أحوال المجتمع وأفراده ، بل وتفاعل معها ، وهذا واضح جلـــي من عنوانات مقالاته وخطبه . ([2])

فهي تدل دلالة قاطعة علي تجاوب الكاتب ومعايشته لأحوال مجتمعـــه وإحساسه بمشكلاته ومشاركته أفراده في شتي أحوالهم . وهذه سمة فنيـــة ينبغي أن يتسم بها عمل الأديب حتى يكتب له القبول والبقاء والخلود .

([1]) راجع الأسلوب د/ محمد كامل جمعه ص ١١ .

([2]) انظر مقالاته : " بأي ميزان نزن الحياة " و" عناصر الإيمان في قلوب الشباب " و" الأخـــلاق والمجتمع " و "الحرب في قريتنا " و" أمراض المدينة وأعرضها " و" إذا صحت العزائم " و" معني حرية المرأة " و" الشهادة الدراسية والرجل " و" الوطنية الفاضـــلة " و" مآتمنـــا " و" القرية في ظلام " و" ماذا يشربون " إلي غير ذلك من المقالات والخطب فهى تـــدل دلالـــة قاطعة على تجاوب الكاتب ومعايشته لأحوال مجتمعه وإحساسه بمشكلاته ومشاركته أفراده فى شتى أحوالهم ، وهذه سمة فنية ينبغى أن يتسم بها عمل الأديب حتى يكتب له القبـــول والبقاء والخلود .

(ب) الملاحظة الدقيقة .

من السمات الأسلوبية العامة لنثر "توفيق دياب" الملاحظة الدقيقة ، وتعني : الروح العلمية التي تقدر الحقائق وتقيمها كما هي بدون تغيير ، وتسارع فتلمح العلاقات بين أشتات الحقائق وتحيلها إلي حقائق كبري تنتظمها . ([1])

وهذه الروح وتلك الملاحظة الدقيقة يجمع الأديب مادتها من الحياة ومن الطبيعة ومن الكتب علي حد سواء ، ويحدوها في ذلك الحماس والدقة والحذر المدقق الممحص ، واستعمال الحواس في دقة وحدة ، عندئذ يستشعر الأديب أن كل شيء يحصله عن طريق الملاحظة الدقيقة له فائدة كبيرة في مجال عمله الأدبي .

وهذه الملاحظة تتطلب من الكاتب أن يكون متيقظ الذهن ليس في مجال الأدب فحسب ، بل عليه أن يكون متفتحا لأشياء متعددة ومتباينة ، وأن يدرب إدراكه الحسي علي كثير من ألوان الملاحظة ، وألا يكون ضيقا أو متحيزا بل واسع الأفق في ميادين الذوق وصدق النظر .

ومن ثم فانه علي الأديب أن يتغذى من كل نوع من المعرفة ما دام ذلك في متناوله ، فعليه أن يقرأ الكتب التي تحت يده وأن يدرس اللوحات والصور التي تكون في متناول يده ، وليرقب الطبيعة وليلحظها ويصل إليها إن كانت نائية ، وليدرس الناس في أسرار طبائعهم وأمزجتهم ونزعاتهم وأذواقهم ومهاراتهم . ([2])

([1]) انظر ،الأسلوب ، د/ محمد كامل جمعه ص ١٥ .

([2]) انظر ، الأسلوب ، محمد كامل جمعه ١٧ .

وتأسيسا علي ذلك وبالنظر إلي نثر "توفيق دياب" نلحظ أنه كان شديد الملاحظة ودقيقها ، ساعده في ذلك كثرة قراءته في كثير من المجـــالات ، ودراسته واحتكاكه وملامسته أسرار الناس

وطبائعهم ، ومحاولة التعرف إلي أمزجتهم ونزعاتهم ، ممـــا أكســـب موضوعاته هذه السمة الفنية وهى دقة الملاحظة .

ومن الموضوعات التي امتاز فيها الكاتب بدقة بملاحظته ، حتى ليكاد يكون منفردا في تناولها ، والحديث عنها بأسلوب أدبي رصـــين موضـــوع "الصغائر المزعجة" ؛ حيث تناول فيه موضوعات أو عادات أو أفعال ربمـــا تمر علي الآخرين دون أن تلفت انتباههم ، لكنه بملاحظته الدقيقة ومعايشته أحوال المجتمع بإحساسه ومشاعره جعلته يعبر عنها تعبيرا دقيقـــا ، مـــن يقرأه لا يملك إلا أن يشاركه إحساسه ومشاعره ، وهذه هي الغاية الأسمي من الأدب ، أن يؤثر في المتلقين ، وأن يجذبهم نحوه .

ومن الصغائر التي لاحظها ورأي أنها مزعجة ، وأقنع القاريء بذلك ظاهرة الباعة الجائلين ، حيث صور ما يقوم به هؤلاء البائعون من إزعاج للآخرين وفي أسلوب أدبي تلفه مسحة السخرية الضـــاحكة ؛ ومـــن ذلـــك قوله:([1]) " نفترض أنك من أولئك الذين لا يحبـــون الســـهر ، أنـــك تـــؤثر الهجوع في الساعة التاسعة من المساء وأنك الآن في مضجعك لأن الساعة التاسعة قد حانت . "طاظه يا لبن" صوت ضخم ممتد من حنجرة قويـــة ، لا يزال يلح علي سمعك وأعصابك حتى يؤذيها أبلغ الأذى . وقد تكون ممن لا

([1]) اللمحات ١٥٧ : ١٦٠ مقال نشر سنة ١٩٢٣ .

يشتهون لبن "الزبادي" أو ممن يشتهونه ، ولكنك ملأت منه جوعتك وقت العشاء حتى لا موضع لمزيد ، فيقع منك هذا النداء موقعا مؤرقا أليما " .

ويسير الكاتب في مقاله علي هذا النحو ، فيورد مثل هذه الأشياء وغيرها ، والتي أصبحت في نظر الكثير من الناس – إن لم يكن جميعهم – أمورا طبيعية لا تلفت أنظارهم أو تشد انتباهم ، لكن الكاتب بدقة ملاحظته استطاع أن يحولها إلي صورة جمعت في داخلها واقعية الموضوع فضلا عن الأسلوب الأدبي الجذاب .

ومن الموضوعات التي ظهرت فيها دقة ملاحظة الكاتب ، ومدي معايشته لأحوال الناس ودراسته أسرار طبائعهم ، وأمزجتهم ونزعاتهم . موضوع إضراب الشباب القادر علي الزواج ، وإقبال المتزوجين علي الطلاق والزواج مرات ومرات .

وقد عالج الكاتب هذه الظاهرة أو تلك القضية معالجة كشفت عن دقة ملاحظته واتساع ثقافته وتعرفه الكثير من القضايا والأمور التي تخفي عن كثير من الناس ، ولنستمع إلي حديثه الإذاعي الذي أذيع عام ١٩٤٦ م ، تحت عنوان "المزواج والمضرب عن الزواج" ، وقد قدم له تقديما رائعا ؛ حيث أثبت من خلاله أن الموضوع يبدو في نظر الناس أمرا هينا لا يستحق حديث المتحدث ، لكن بالملاحظة الدقيقة هو أمر جدير بالعناية والاهتمام ، فيقول : ([1]) " لعلكم تذكرون ما أريد بهذه اللمحات : توجيه شيء من النظر والتفكير ، إلي بعض ما نشهد في حياتنا اليومية ، من أمور، قد تبدو لنا هنات هينات ، لا يستحق حديث المتحدث ، ولا استماع السامع ، وهي في

([1]) اللمحات ٢١٥ .

الحق جديرة بأكثر من الحديث وأكثر من السماع جديرة بالعناية مضاعفة ، والاهتمام جدا ،لأنها وثيقة الصلات ببناء المجتمع ، بعيدة الأثر في تقوية ضعفه ، وإضعاف قوته " .

وغير خاف من في هذه المقدمة من دقة الملاحظة ، المتمثلة في استبطان الكاتب لهذه الظاهرة ، ومحاولته إظهار أهميتها قبل أن يخوض في تفصيلها : لذا استخدم من الألفاظ ما يدل علي ذلك ، ومن ذلك قوله : "لعلكم تذكرون ما أريد لهذه اللمحات" واللمحة تعني النظرة الدقيقة الفاحصة، وان كانت سريعة خاطفة ، ومنه قوله أيضا : "وهي في الحق جديرة بأكثر من الحديث" و"جديرة بالعناية مضاعفة" إلي آخر ما ورد من ألفاظ تدل علي عمق نظرته وقوة ملاحظته .

ويسير الأديب في نثره علي هذا النحو ، من دقة الملاحظة والمعايشة الدقيقة الواعية ، واستبطان الأمور ، وكشف حقائقها ، مما جعل نثره قيمة أدبية راقية لما يحمله من فكر وأدب (١)

(ج) الانتقاء والتأمل .

من السمات التي اتسم بها نثر "توفيق دياب" سمة الانتقاء والتأمل ، وتعني انتقاء الموضوع بدقة وروية ، والوقوف علي حدوده وجزئياته ،

---

(١) له في ذلك مقالات عديدة امتازت كلها بدقة الملاحظة والتعمق في بواطن الأشياء ، والثقافة الواسعة والمتنوعة ، منها : " أهذا جزاء مصر " " هل تنام الجامعة العربية " قال الملكان" "هذه الرؤوس " " القنابل الديمقراطية " "النكتة اللاذعة " إلي غير ذلك من المقالات والخطب، التي امتازت بدقة الملاحظة التي دلت علي اتساع ثقافته ورقي أدبه .

والتخطيط له قبل الابتداء في كتابته ، ليصل في نهايته إلي نتائج مقبولة لا جدال فيها ولا مراء .

أوهي ذلك النشاط الذهني العميق ، والقوة المدربة التي تسمح للفكر بالتدرج والكينونة ، وتجعل الموضوع في حالة من التطور والايجابية الموجهة . (١)

وحتى يصل الأديب إلي درجة مرضية عليه أن يتدرب علي حسن الانتقاء والتأمل مستعينا بثقافته المكتسبة حتى يتجنب أن يضل ذهنه في غياهب الأحلام الطافية الغامضة ؛ إذ إن هذا التدريب وذاك المران ، سيجعل الكاتب بعيدا عن التخبط ، ويتيح له القدرة والسيطرة ونفاذ الخيال السليم الي العمل الأدبي الذي يختمر في أعماقه .

ومن ثم سيصبح الانتقاء والتأمل عادة لدي الكاتب ، وسيألفه ويتقنه كلما سار علي هذا المنهج المستقيم فيما يريد تناوله من موضوعات .

ومن فوائد هذه السمة – التي يجب على الأديب أن يتحلى بها أنها تساعده في التعبير الدقيق عما اهتدي إليه ، وتنظم قدرته وجهده عندما ينشيء عمله الأدبي ، وتخلع علي هذا العمل لونه الطبعي ، وتبعد عنه السفسطة والتحذلق ، وتبرزه وعليه مسحة من الإنسانية (٢) تضمن له القبول والتأثير والخلود .

كما أن من فوائدها أيضا أنها تنأي بالكاتب بعيدا عن العجلة ، وتمنعه من تقديم نتاج فج مرتجل ، يخيم عليه الإبهام والغموض ، كما أنها تمنعه

---

(١) انظر الأسلوب ، د/ محمد كامل حمعه ص ٢٠ .

(٢) انظر السابق ١٩ .

من التفكير المتعجل ، وفي الوقت نفسه تحول بينه وبين التفكير الكسول المتراخي ، وتسد الطريق أمامه إذا أراد أن يتناول موضوعات فوق قدرته وطاقته ، وتسهم – كذلك – في تصميم الموارد اللازمة للعمل الأدبي، وتعمل – وهو الشيء الأهم – علي الوصول إلي نتائج صحيحة ومستقلة (١) . فتكون ثمرة يانعة لهذا المجهود الذهني العميق .

وإذا أردنا أن نطبق هذا المفهوم علي نثر "دياب" نجد أنه قد بلغ منزلة باسقة في الانتقاء والتأمل ، وكان علي درجة كبيرة من النشاط الذهني ، الذي ساعده في انتقاء موضوعاته وحسن تنظيمها ، وبراعة ترتيب أجزائها ، والتعبير عنها بأسلوب أدبي سهل مؤثر .

ففي محاضرته " عناصر الإيمان في قلوب الشباب " نلمح هذه السمة الفنية ، والتي تمثلت في انتقاء الموضوع . ثم الوقوف علي حدوده وجزئياته ، والتخطيط له قبل الابتداء فيه ، مما كان سببا في وصوله إلي نتائج مقبولة ومؤثرة .

ولننظر إلي منهج الكاتب في التأمل ومعالجة الموضوع ، حيث يقول في بداية هذه المحاضرة: (٢) " لقد نصبت لنفسي شركا ، حين اخترت موضوع الإيمان ، ثم جعلت الشرك محكما حين اخترت أن أوجه الكلام في الإيمان ، إلي شباب مصر من فتيان وفتيات " .

فهذه البداية تشير بوضوح إلي دقة وروية وتأمل الكاتب في اختيار موضوعه كما تشير كذلك إلي النشاط الذهني لدي الكاتب ، والذي جعله

---

(١) انظر السابق ص ٢١، ٢٢ .

(٢) اللمحات ٣٥ : ٤٥ .

يقدم الموضوع في صورة متناسقة مترابطة ، وفي أسلوب واضح بعيد عن التحذلق والسفسطة والإبهام ، معتمدا في كل ذلك علي ثقافته الواسعة ، التي هي نتيجة من نتائج التأمل التي اتسم بها نثره .

ومن مظاهر دقته وتأمله فى هذه المحاضرة أنه بين العلة والسبب في اختيار هذا الموضوع حيث يقول : " ذلك بأن الإيمان قد يكون معناه التقي والورع ، والتقي عند بعضهم أشبه بالشيوخ المودعين منه بالشباب المقبلين . ألا يسمي رسوخ بعض العقائد في بعض النفوس إيمان العجائز ؟ فليس ظريفا إذن ولا طريفا ، أن يحسب فتياننا شيوخا ، أو فتياتنا عجائز ، وان كان ذلك المصير – أطال الله حياتهن وحياتهم – لابد منه بعد خمسين عاما فان شاءوا فمئة . " .

فنحن نري مدي تركيز الكاتب في التعليل لاختيار الموضوع ، والتقديم له تقديما ينم عن تمكنه وتأمله وتخطيطه له ، ساعده في ذلك ثقافته الواسعة المتنوعة ، والتي جاءت ملامحها بارزة واضحة في جوهر الموضوع .

وتسير المحاضرة علي هذا النحو من التأمل ، وحسن العرض ، وانتقاء الموارد اللازمة للموضوع ، من الأدلة والبراهين ، والأساليب المتنوعة التي يقتضيها المقام وتفرضها المناسبة ، وهو في كل ذلك القائد الماهر الذي يمسك بزمام الموضوع حتى يصل به إلي حيث خطط له ونظم.

ويسير "توفيق دياب" في موضوعاته علي هذا النحو وتلك الطريقة ، التي أضفت عليها الجدية والطرافة ، وبراعة الأسلوب ، وصدق العاطفة ،

وتناسب النتائج فضلا عن الأثـــر الـــذي يمكـــن أن تتركـــه فـــي نفـــوس السامعين (١).

..... وبعد فهذه أهم السمات الأسلوبية العامة ، التي اتسم بها نثـــر "توفيق دياب" وقد اكتشفنا من خلالها تمكنه ورسوخ قدمـــه فـــي تفاعلـــه وتجاوبه مع الظروف ، ومراعاته ظروف العمل الأدبي ، وظروف المتلقي ، كما تبين – أيضا – ملاحظته الدقيقة في جمع مادتـــه الأدبيـــة واســـتعمال حواسه في اختيارها ، فضلا عن تأمله وتخطيطه الســـديد لموضـــوعاته ، وجاء كل ذلك في قالب أدبي رائع له خصائصه الفنية الدقيقة التي نحـــاول استظهارها.

ثانيا : السمات الأسلوبية الدقيقة .

(أ) التنويع فى الأسلوب .

بالنظر فى النثر الفنى "لمحمد توفيق دياب " نرى أنه قد تنـــوع فـــى أسلوبه ، ويرجع هذا التنوع للأنماط والأنواع التى جاء عليه هذا النثـــره ؛ فقد تنوع ما بين المقال والخطبة والكلمات الإذاعية والمحاضرات ، ولكـــل نوع من هذه الأنواع أسلوبه وأداؤه الذى تميز به عن غيره .

فلو نظرنا إلى المقال نجد أن " توفيق دياب" قد أتـــى فـــى مقالاتـــه بالخصائص الفنية للمقال وهى المقدمة والعرض والخاتمة . فضـــلا عمـــا يطلبه المقال من دلائل وبراهين لبيان الفكرة وتوضيحها .

---

(١) انظر ، مقالاته :"حقنا الكامل لا ينتقص" "ماذا ضرني سجني" "أيها العـــام الماضـــي وداعـــا" "معركة الوجدان" "الشاعرية والأثاث" "ياشاويش" إلي غير ذلك من المقالات والخطب ، وقـــد امتازت كلها بجودة الانتقاء وحسن التأمل.

ومن أولى السمات الأسلوبية للمقال أنه أمتاز بالقصر فى الأعم الأغلب ، فضلا عن الأسلوب الجذاب، الذى يشد انتباه القارىء ، ويجعله يتعايش مع الفكرة والموضوع الذى يعالجه الكاتب ، كما ظهرت براعة "توفيق" فى مقالاته بقوة الإقناع وسوق الحجج والبراهين للتدليل على فكرته وموضوعه ، هذا بجانب العبارات والتراكيب الواضحة القوية ، والألفاظ الجزلة الفصيحة التى لا غموض فيها ولا إبهام ، ولو نظرنا إلى مقال "أمراض المدينة وأعراضها" أو غيره لنرى هذه السمات نجد أن المقال امتاز بالقصر ، وفى الوقت نفسه تناول الموضوع والفكرة من كل جوانبها، فالكاتب قد بدأ بمقدمة عامة أشار فيها لطبيعة موضوعه دون أن يفسر أو يوضح شيئاً ، وهذا ما يجب أن يكون فى مقدمة المقال ، بصفة عامة ، ولننظر لنرى كيف بدأ مقاله هذا ، يقول توفيق (١) "ارتباك وهلع فى انجلترا وغيظ كمين فى ألمانيا ، وحذر وإشفاق فى فرنسا ، وكساد يشبه الشلل فى أمريكا ، وروح أشعبية خطرة فى إيطاليا ، وتحفز للوثوب فى روسيا البلشفية ، وإبادة دامية فى طرابلس ، واستعباد فى تونس والجزائر وفى مراكش والريف ، وانقلاب بقوة الحديد والنار فى مصر ، وفتنة من صنع انجلترا فى فلسطين ، وعبث من صنع فرنسا فى سوريا ، وألاعيب فى العراق ، ودسائس فى بلاد الأفغان وبحرلجى من العدوان فى الهند ، وتنور دائم الفوران فى الصين وتحرش بالجار فى اليابان ."

فهذه هى مقدمة المقال ، وقد أشار فيها الكاتب إلى موضوعه بطريقة جذابة وشيقة تدع القارى فى حالة من التطلع إلى المزيد من التوضيح

---

(١) اللمحات ٥٦ نشر فى الجهاد فى سبتمبر سنه ١٩٣١.

والتفسير ، ويجعله يواصل القراءة فى شوق وتلهف لمعرفة الأسباب الكامنة وراء كل هذه الأشياء التى وردت فى تلك المقدمة ، كما امتازت أيضا – بوضوح العبارة وجزالة الألفاظ ، وتوازن الجمل . وبعد هذه المقدمة يحاول الكاتب أن يضع يده على تفاصيل الموضوع وجزئياته من خلال الجزء الثانى من المقال وهو العرض ، الذى يقدم فيه الكاتب حججه وبراهينه لهذا الموضوع والتى غالباً ما تخضع للعقل والفكر أكثر من العاطفة والخيال .

فبعد هذه المقدمة التى يعبر عنها الكاتب بأنها لمحة خاطفة تؤذى العيون وتحير الألباب والقلوب يشرع فى عرض الموضوع ، فيقول :" فبعد أن نقضى العالم خمسة سنين فى حربه الكبرى "(١) ابتلعت شجرة السلام من جذورها ، وأكلت ملايين الأنفس وشوهت ملايين الأجسام ، وابتلعت ألوف الملايين من الذهب ، وجعلت العمران يبابا والقصور قبورا، ها نحن أولاء نرى العالم بعد انقضاء ثلاثة عشر عاماً على انطفاء ذلك الحريق المروع ، ومازالت المطامع الجديدة هى المطامع القديمة ، ومازالت الأمراض التى كانت الحرب عرضا من أعراضها وطفحاً من سمومها هى كما كانت قبل وقوع المأساة العالمية . "

فهذا جزء من العرض استخدم فيه الكاتب براعته اللغوية ومهارته الأسلوبية ليوضح للقارىء مقصده من أمراض المدينة " فالقارىء للموضوع يرى كيف يسير فيه الكاتب بسلاسة ويسر وهدوء ، ومهارة فى تصوير الأثر السىء الناتج من تلك الحرب ، وقد وضح ذلك فى قوله

---

(١) المقصود الحرب العالمية الأولى والتى بدأت فى سنة ١٩١٤ وانتهت ١٩١٨ .

"ابتلعت شجرة السلام" و "أكلت ملايين الأنفس" و "ابتلعت ألوف الملايين من الذهب "إلى غير ذلك من العبارات والتصويرات، التى انتقاها الكاتب بمهارته الأسلوبية لتعطى صورة واضحة جلية للحرب وما تركته من خراب ودمار وأثر سيء فى نفوس الناس ، ولا يخفى ما فى الأسلوب من استعارة، وضح بها الكاتب ما يمكن أن يكون خافيا من أثر الحرب ، وذلك فى مثل قوله :"ابتلعت" و"أكلت" ألخ وهذه حقيقة لا جدال فيها أن الحرب دمار وخراب ، وضياع للأموال والأنفس ، لكن أسلوب الكاتب وطريقته أضفت على هذه الحقيقة لمسة جمالية تثير ذهن القارىء ، وترقى ذوقه .

وقد استخدم من أجل ذلك الأساليب المتنوعة ، ما بين الحقيقة والمجاز ، وأدوات التوكيد ، والتشبيه ، والاستعارة ، إلى غير ذلك مما يسهم فى بيان فكرته وتوصيلها إلى قارئيه ، ومن ذلك قوله مؤكداً فكرته :" إن كبريات الدول الغربية نكبات بعضهن على بعض ، ونكبة أعظم على أمم الشرق" وقوله أيضاً :" إن الغرائز الضارية مازالت صاحبة السلطان الأكبر على حضارة الغرب".

ومن الأساليب المجازية التصويرية التى تجسم الحقيقة وتبزها واضحة قوله عن ساسة الدول الغربية :"مازال ساستها وقادتها عبيداً لغرائز الأثرة وحب الغلب ، وعبادة القوة دون الحق ، فلا فرق بينهم وبين طغاة الجاهلية الأولى". (١)

ففى هذا التعبير تصوير لأولئك الساسة بأنهم عبيد لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً ، على رغم كبريائهم وغطرستهم ، فهم عبيد لغرائزهم

---

(١) أنظر المقال كاملا فى اللمحات ٥٦ : ٥٧ .

وشهواتهم ، كما أنه صورهم بأنهم عباد للقوة دون الحق ، وصورهم بأنهم أشبه بطغاة الجاهلية على رغم تقدمهم العلمى والثقافى والفلسفى .

وبهذا الأسلوب استطاع الكاتب أن يأتى بكل ما يخدم موضوعه وفكرته من ألفاظ وعبارات وتصويرات ، وأساليب حقيقية ، أسهمت كلها فى بيان الفكرة ووضوحها .

وبعد أن انتهى من عرض موضوعه بهذه الطريقة الأدبية كان لزاما أن يأتى بخاتمة هذا المقال ليجمع فيها خلاصة ما تقدم ، وليعرض أهم النتائج إن وجد ، ليخرج القارىء بخلاصة الموضوع فى سطور قليلة وعبارات دقيقة معبرة ، فضلا عن وجهة نظر الكاتب فى هذا الموضوع ، كل ذلك يأتى فى الخاتمة التى تحتاج من الكاتب قوة تركيز ومهارة أسلوبية ليجمع كل ما تقدم فى عدة أسطر ، أو عدة عبارات ، وقد نجح الكاتب فى ذلك نجاحاً كبيراً ، حيث ختم موضوعه بما يتناسب والعرض الذى قدمه .

ففى الخاتمة يأتى "توفيق دياب" ببعض النتائج التى لا تقبل الشك ، ولا يختلف عليها أحد فيقول :"وما لم يسيطر وازع العقل على دافع الغريزة فى ساسة الدول ، وما لم تنبت فى نفوسهم نابتة الضمير الذى يحترم الحق ولو كان أعزل ، وما لم تصبح مصانع الدنيا أشبه بمزرعة واحدة وأسواقها أشبه بسوق واحدة ، كل أغراضها توفير الخيرات ، وتهيئة أسباب الرغد للجميع ، فلا تجوع أمه لإشباع أمة أو تشقى طبقة لإسعاد طبقة ما لم يحدث كل هذا فإن النتيجة الحتمية التى لا مراء فيها ولا جدال هى :"أن كل علاج للكوارث العالمية سيذهب جفاءً وزبداً ثم لا يطول المدى حتى تطفح سموم الحسد مرة أخرى أشد وأفظع" .

بهذا يكون الكاتب قد استطاع أن يقدم فكرة واحـــدة بكـــل جزيئاتهـــا ونتائجها بين يدى القارىء بأسلوب شيق ورائع ، اعتمد فيه الكاتب علـــى دقته اللغوية ومهارته الأسلوبية وقوة حججه وبراهينه .

ويسير الكاتب فى مقالاته على هذا النحو الفنى الذى يبرز خصـــائص المقال الفنية ، وبكل ما يسهم فى شد انتباه القارىء والتأثير عليه . (١)

****

أما عن خطبه فقد كان "توفيق" بارعاً متخصصاً فى فـــن الخطابـــة ، فكان خطيباً مفوها يملك ناصية الكلمة ، اختياراً وأداءً ، وهذا بشهادة مـــن سمعوه من الزعماء الذين كان لهم باع فى هذا الفن أيضاً – مثـــل "ســـعد زغلول" الذى اعترف ببراعته وتفوقه فى هذا الفن .

ومعلوم أن الخصائص الفنية للخطابة لا تختلف عن الخصائص الفنية للمقال ، من حيث الشكل ، فالخطبة لها مقدمة ، وعرض وخاتمة ، والناظر فى خطبه يجد أن هذه الخصائص قد توافرت بصورة تدل على تمكنه مـــن أدوات فنه ، وأدائه القوى المميز لما يلقيه من خطب . وكما هو معـــروف ايضاً أن الخطابة تقوم وتعتمد على المشافهة والسماع ، ومحاولة شد انتباه المستمع من خلال الأسلوب المناسب ، والبلاغة التى تقضى بأن يكون لكل مقام مقال ، والاعتماد كذلك على نبرة الخطيب نفسه وعلوها وانخفاضـــها

---

(١) أنظر مقالات توفيق دياب "صبراً يا مصر" مصر الفنية "١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨م" "مرحبـــاً شمس السلام" أهذا جزاء مصر" "هل تنام الجامعة العربية" "قال الملكان" "هذه الرؤوس" "إلى الضمير البريطانى" إلى آخر مقالاته ، وكلها يسر فيها على هذا النحو الفنى الذى يجمع بين دقة الموضوع وبراعة الأسلوب .

حسبما يقتضى المعنى ويتطلبه الموقف ، وهذا يتطلب من الخطيب أن يكون مرتباً أفكاره ترتيباً جيداً حتى لا تضيع منه الفكرة ويتشعب الموضوع ويتشتت ذهن السامع.

وبالنظر إلى خطب "توفيق دياب" نجد أنه كان بارعاً فى هذا الاتجاه ، ففى خطبته "تطور الصحافة المصرية" (١) ثم استطاع أن يعبر عن موضوعه بطريقة سهلة يستطيع السامع أو القارىء لها أن يستوعبه ، وأن يندمج مع الخطيب ، وهذا هو الشىء المطلوب ، والأثر الذى ينبغى أن يكون.

وقد جاءت الخطبة فى شكلها الفنى مكونه من مقدمه وعرض وخاتمة ، كما هو الحال فى المقال ، واستطاع الكاتب بمهارته وقدرته الفائقة فى فن الخطابة أن يسلسل الموضوع ، ويعطى لكل فقرة رقماً بادئا بالمقدمة ، فأعطاها رقم "١" ثم لكل فقرة من الفقرات فى العرض رقما ، وهكذا إلى آخر الخطبة ، وهذا يدل على التحضير الجيد للموضوع والترتيب المحكم له ، بحيث يكون الموضوع فى نقاط يسهل على المستمع استيعابها وفهمها بدلا من أن يكون عائما غائماً يأتى الخطيب فيه بكلمة من هنا وعبارة من هناك ، وربما يقع فى التكرار ، مما يكون سبباً فى ملل المستمع وعدم تجاوبه .

ومن السمات الفنية لهذه الخطبة – أيضاً – أنها امتازت بالأسلوب الهادىء المتكىء على المعلومات التاريخية لتطور الصحافة المصرية ، وقد استخدم الخطيب الطريقة المثلى فى عرض هذا الموضوع ؛ حيث أتى

---

(١) ألقيت فى المؤتمر الوطنى العام للوفد المصرى فى ٩ يناير سنة ١٩٣٥ م .

بالتواريخ الحقيقية لتطور الصحافة المصرية ليكون القارىء أو المستمع على بينة حقيقية وتاريخية من هذا التطور الذى لحق بالصحافة المصرية ، وهذا يتناسب وطبيعة الموضوع الذى عرضه الكاتب .

ومن السمات الأسلوبية – كذلك– أن أسلوب الخطبة قد تفاوت فمرة يكون هادئا حيث يتطلب الهدوء ، ومرة يعلو ويشتد حيث يكون ذلك مطلوباً والخطيب الحق يراعى حال مستمعيه ، ويكون حريصاً على شدّ انتباههم .

فمثلا حينما يتكلم عن أمر تاريخى فإنه يكون هادئا ، إذ إن عرض المعلومة التاريخية فى الغالب لا يحتاج إلى انفعال وعلو نبرة"، ومن المواطن الهادئة فى هذه الخطبة قوله :"وفى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ألغيت الحماية وأعلنت مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وألفت لجنة لوضع الدستور ، يعنينا هنا من أمرها مناقشاتها حول حرية الصحافة" . فالأسلوب كما نرى هادىء تناسب مع الفكرة .

أما حينما تتعلق الفكرة بأمر يخص المشاعر والأحاسيس فأننا نرى الأسلوب قوياً عاليا وفى بعض الأحيان يكون صاخبا ، ومن ذلك قوله فى الفقرة السابعة عشرة من هذه الخطبة :"إن أطفال المحكوم عليه بالإعدام ليملكون بعد موته أن يستأنفوا أعمال أبيهم ، وأن ينتفعوا بميراثه ، وأن يصلوا ما قطعه حكم القضاء على أبيهم من أسباب الحياة ، فلماذا يعامل الصحفى ما لا يعامل القاتل الفتاك ؟ وعقوبة التعطيل أو الإلغاء خروج صارخ على مبدأ مأخوذ به فى جميع الشرائع والقوانين ، وهو أن لا تمتد العقوبة إلى أشخاص لا يد لهم فى الجريمة." فالأسلوب كما نرى أقوى من سابقة ، فقد اشتمل على أدوات التوكيد ،"إن" و "اللام" وعلى الاستفهام

الإنكارى فى قوله :"فلماذا يعامل ... إلخ" بالإضافة إلـى بعـض المقـاطع الصوتية العالية مثل كلمة "صارخ" كل ذلك أسهم فى جعل الأسلوب مناسـباً لمراد "الكاتب" وفى التأثير على نفس القارىء أو المستمع .

وتسير الخطبة على هذا النحو حتى النهاية ، لا نرى فيها تكراراً لأمر من الأمور ، فضلا عن تناسقها وانسجام أجزائها ، وترابط أفكارها . ممـا يدل على براعة الخطيب وقدرته على الموائمـة بـين موضـوعه وبـين مستمعيه ، وهو فى خطبه كلها يسير على هذا النهج .([1])

كما أنه كان يدعم خطبه – أحياناً ببعض الأشعار المناسـبة للمعنـى الذى يتحدث فيه ، وهذه قدرة فائقة فى شد انتبـاه السـامعين ، وتنويـع الأسلوب وتجميله . ([2]) كما كان لا يلجأ فى خطبه أو بالأصح فى نثره كلـه إلى الزخارف اللفظية أو المحسنات البديعية تكلفاً ، وهذا يدل على اعتنائـه بالمعنى والفكرة ، وكذا الأسلوب الرائق الذى لا تكلف فيه ولا إبهام .

ويقتضينا الإنصاف أن نشير إلى أمر هام أن أسلوب المقال يختلـف عن أسلوب الخطابة ، فالمقال يمتاز بالأسلوب الذى يعتمد على الفكر والعقل أما الخطابة فإنها تقوم كذلك على الفكر والعقل، لكن أحياناً – تؤدى عاطفة الخطيب واندماجه مع مستمعيه دوراً بارزاً فى الأداء الخطابى ، فتعلو نبرة الخطيب وتنخفض حسب المعنى وحسب المقام الذى يتحدث فيه .

ومما سبق نلحظ أن "توفيق دياب" يسير في موضوعاته وأفكاره سيرا منظما متسلسلا ، مما يدل علي أنه كان يخطط لهذه الموضوعات ، ويرتب

([1]) انظر خطبه فى اللمحات صـ٢٠ ، ٣١ ، ٥٢ .

([2]) انظر خطبته "ذكرى محمد محمود باشا" وكان رئيس وزراء مصر من ١٩٢٨ –١٩٣٨ .

عناصرها ويجمع شتاتها ، معتمدا في كل ذلك علي ثقافة واسعة ، وفهم جيد لما يريد عرضه ونظر ثاقب لجواهر الأشياء ، وحس أدبي مرهف ، كل ذلك أسهم في وضوح نثره في أفكاره وأسلوبه (١).

(ب) قوة الأسلوب وجماله .

امتاز نثر "دياب" بقوة الأسلوب وجماله ، واستطاع من خلاله أن يأسر سمع وأفئدة المتلقين ؛ بحيث نأي به عن الأسلوب التقريري البحت ، الذي يصيب القاريء أو السامع بالملل والسأم ، وارتقي به إلي القوة والجمال . والنزعة الأدبية العالية علي الرغم من تعدد موضوعاته وتنوعها ما بين سياسية واجتماعية وثقافية وغير ذلك ، فقد جاءت بأسلوب أدبي يمتاز بالقوة والجمال .

ويقتضينا الإنصاف أن نشير – قبل أن نوضح آمارات قوة الأسلوب وجماله – إلي معني القوة والجمال في الأسلوب .

فإن قوة الأسلوب وجماله تعني بذل الوسائل التي تثير ذهن القاريء وتحركه لكي يكون له المزيد من الإدراك والاهتمام والشغف . أي أن كل ما يمنح الأسلوب قوة هو شيء تكون له القدرة علي أن يوقظ العقل ويتحداه (٢)

---

(١) للاستزادة من بيان وضوح نثر "دياب" في الأفكار والتراكيب انظر مقالاته في كتاب اللمحات فهي لا تخفي علي أي قاريء ، مع احتفاظ أساليبها بالخصائص الفنية ، والنزعة الأدبية العالية علي اختلاف موضوعاتها ومضامينها .

(٢) انظر الأسلوب : محمد كامل جمعه ٨٠ .

وتكوين الأسلوب القوي الجميل من أهم مظاهر براعة الكاتب ، وأوضح معرض لقوة الإدراك ، ويقظة الشعور ، وجمال الذوق لذلك فالكاتب ذو الطبع الأدبي الصادق ينصرف إلي تخير الكلمات الفصيحة الدقيقة المعنى ، المتلائمة مع أخواتها ، حتى تطمئن عناصر العبارة في موضعها دون إكراه، وعندئذ يجمع الأسلوب بين وضوح التفكير من ناحية وبين قوة الأسلوب وجمال التصوير من ناحية أخرى (١) .

ومن وسائل قوة الأسلوب وجماله ، استخدام الصفات التي تترك في نفس القاريء أثرا جماليا إلي جانب دلالتها والصور التي تثيرها في خيال القاريء .

ومعلوم أن "دياب" كان عضوا في مجمع اللغة العربية ، وكان علي قدر كبير ومعرفة دقيقة باستخدام مفردات اللغة ، ومدلولاتها ، بدرجة ساعدته في إخراج أسلوب امتاز بالقوة والجمال ، فضلا عن حسه الأدبي الصادق . الذي أضفي علي الأسلوب الجمال والقوة أيضا .

ومن ذلك قوله معرفا الدنيا في محاضرته :بأي ميزان نزن الحياة" (٢) " ذلك السر الغامض ، الذي يبدأ بالميلاد وينتهي بالوفاة ، ذلك السر الغامض الذي نسميه الحياة ، ونري أنفسنا في غماره متدافعين إلي الأمام أو متراجعين إلي الوراء . ذلك البحر الخضم ، الذي تلقينا بين أمواجه يوم نولد قوة خفية ، حتى إذا سبحنا فيه شوطا قصر أو طال ، نزعتنا منه تلك القوة الخفية حين يحل الأجل . هذه المعركة التي نساق

---

(١)انظر الأسلوب – أحمد الشايب ص ٤٨ .
(٢)اللمحات ، ١ .

إليها غير مختارين ، ونفصل عنها غير مختارين ، هذه الحياة ما هي ؟ وما غايتها . ولماذا ولدنا ولماذا نموت ؟ " .

فإذا أنعمنا النظر في هذا الأسلوب ، نلحظ أن الكاتب استطاع أن يستولي علي ذهن القاريء أو السامع ، وذلك من خلال ما أورده في هذا الأسلوب من مظاهر القوة والجمال ، المتمثلة في الألفاظ التي تثير ذهن المتلقي ؛ فقد بدأ الكاتب حديثه عن الدنيا بقوله : " ذلك السر الغامض " وهذا التعبير بألفاظه يثير ذهن السامع ، ويجعله في حالة من التفكير والانتباه ، فلو قال الكاتب بدلا من ذلك : " هذه الدنيا " ما كانت هذه العبارة لتعطي المعني السابق ، وما كانت لتترك أثرا بالقدر الذي يتركه قوله : ذلك السر الغامض " .

ثم انظر قوله معرفا هذا السر الغامض : "الذي يبدأ بالميلاد وينتهي بالوفاة " فان بذلك يقترب من سامعه بتلك الطريقة السهلة الجميلة القائمة علي المقابلة التي تزيد المعني وضوحا وجمالا ، فهذا السر الغامض يبدأ بميلاد الإنسان وينتهي بوفاته ، فهذه العبارة تجعلنا نحس بما يحس به الكاتب ، من أن الحياة بالنسبة للإنسان وغيره تبدأ يوم يولد وتنتهي يوم يموت .

ولننظر إلي هذا التصوير الرائع الذي زاد الأسلوب جمالا وقوة ، حين صور الحياة بحرا يتدافع فيه الناس إلي الأمام ، أو يتراجعون إلي الوراء ، دون إرادة منهم أو اختيار أو تحديد لوقت ، فالقوة الخفية تنزعهم حين يحل الأجل .

تمثلت هذه المعاني في قوله : " متدافعين إلي الأمام أو متراجعين إلي الوراء " ففي العبارة حركة دائبة وصراع وتدافع وتراجع في آن واحد ؛ كما تصور حركة الناس فيما بينهم ؛ فهم يدفعون بعضهم بعضا ، ويسوق بعضهم بعضا ، وهذه طبيعة الحياة وناموس الناس فيها ، كما أراد الخالق جلا وعلا ، فيقول سبحانه : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا .... " (١) .

ومما يسترعى النظر أيضا قوله " ذلك البحر الخضم الذي تلقينا بين أمواجه يوم نولد قوة خفية ، حتى إذا سبحنا فيه شوطا قصر أو طال ، نزعتنا منه تلك القوة الخفية حين يحل الأجل . " . فالألفاظ التي اختارها الكاتب ، ليس فيها ما يشوبها من وعورة في النطق أو خشونة في السمع، كما أتاحت الألفاظ وتلك التعبيرات الفرصة لتصوير حياة الإنسان في هذه الدنيا ، وأنه لا يملك من أمر نفسه شيئا ، في أول حياته منذ ولادته ، وحتى وفاته ، دل علي ذلك قوله : "تزعتنا تلك القوة الخفية " فضلا عما تخلعه الألفاظ من جمال علي الفكرة ؛ حيث استخدم الشاعر خياله في تصوير الحياة الدنيا بهذه الصورة التي تثير ذهن السامع وتشد انتباهه .

كما أن تعبيره : " هذه المعركة نساق إليها غير مختارين ، ونفصل عنها غير مختارين " تشير إلي أن حركة الإنسان في الحياة تسير وفق إرادة الخالق سبحانه وتعالي فالحياة معركة يدخلها الإنسان دون إرادة منه، ويخرج منها دون رأي منه . فالسياق بهذا الشكل وبهذه الكلمات :

---

(١) جزء من آية ٤٠ سورة الحج .

(معركة – نساق – نفصل) يوقظ حس القـــاريء أو الســـامع ، ويكســـب الأسلوب جمالا وقوة .

وبنظرة شاملة إلي هذه الصور وذاك الأسلوب نجـــد أن كـــل لقطـــة وضعت في مكانها وسبكت مع ما يليها ، ووجدناها تتسابق نحو هـــدفها ، وهو التعبير عن المعني الكلي الذي يشمل ما وراء كل لفظ علي حـــدة ، و يشمل حركة الناس في الحياة ، ويصور وضعهم وشأنهم الحقيقـــى الـــذى خلقهم الله عليه.

وهو بذلك يكونِ قد اختار اللفظ الجيد وألف العبارة الشفافة الواضحة المعبرة عن المعنى بكل ما فيه من ظـــلال ، ودل فـــى عباراتـــه القصـــيرة والموجزة على حركة الناس فى الحياة ، فضـــلا عـــن تصـــوير مشـــاعره وأحاسيسه تجاه هذه الدنيا . وكل ذلك أكسب الأسلوب قوة وجمالا .

ومن ملامح قوة وجمال الأسلوب عند "دياب" تلـــك التعبيـــرات التـــى تتجاوز بالعقل معناها الحرفى إلى معان أخرى مجازية ، وذلـــك باســـتخدام الألوان البلاغية المناسبة لطبيعة الموضوع ، ومن استعارة وكناية وتشبيه، إلى غير ذلك مما يحسن فى موضعه ، ويعمل على إثارة ذهـــن المتلقـــى ، وتوسيع مخيلته ، ويجعله يتجاور ويتلاقى مع الكاتب بحس متوقد ، وشعور رقيق ، ومن المواطن التى أجاد فيها "دياب" وكان فيها عالى الحس صادق العاطفة قوله يصور نفسه وزملاءه الدارسين فى الخارج والعائـــدين إلـــى أرض الوطن ، موجها خطابة إلى قادة الإنجليز فى مصر :([1]) "عـــدنا مـــن معاهدكم ومجامعكم – لا أوعية فى فخار صبت فيها علوم ومعـــارف ، بـــل

([1]) اللمحات ١٠٢ .

عدنا مشاعل حرارتها فى القلوب وضوؤها من الرؤوس . عدنا نحمل إلـــى أمتنا رسالة الحياة ، لا حياة الرضا بالواقع الذليل ، وإحالة الذنب فيه على المقادير ، بل حياة أرواح خلقت لتفطن ، وتجدّ ، وتعلو ، لا لتغفل ، وتلهو، وتلصق بالتراب ".

فالأسلوب – فضلا عن العاطفة الجياشة – امتاز كذلك ببعض الصور البلاغية التى أكسبته قوة وجمالا ؛ ففى قوله :"بل عدنا مشاعل" اســتعارة دلت على مدى النشاط والحيوية التى رجع بهما الدارسون إلـــى وطـــنهم ، فالإضافة إلى أثر المشاعل فى إنارة الدروب الحالكة ، وهداية السالكين إلى طريق العلم والمعرفة .

وبعد فإن الصفات الأسلوبية التى اتسم بها نثر "محمد توفيــق" قــد تضافرت كلها (العامة والدقيقة) فى بناء أسلوبى أدبى قوى بليغ ، فهى فى مجموعها كأعضاء الجسد الواحد لابد مـــن ســـلامتها وتعاونهـــا وتآلفهـــا وتناسق حركاتها حتى يتصف الجسم كله بالقوة والحيويـــة . وإن الجســـم يحتاج إلى الرعاية والمحافظة والوقاية حتى لا تنتابه العلل . وكذلك نجد أن الأسلوب الواضح إذا لم يسربله الخيال والجمال صار أسلوباً جافاً جامدا . والأمر كذلك فى الأسلوب القوى الذى لا يدعمه التفكير الواضح المستقيم ، فإنه ينتهى إلى جعجعة ليس وراءها طحن . وقوة الأسلوب التى لا يسندها خيال متدفق خلاق تصل به إلى التحجر والجمود . والجمال أيضا ليس كـــل شىء فى الأسلوب مهما أضفى عليه من جمال الجرس وبهـــاء الصـــورة .

فإن الجمال المعقد الذى تعوزه السماحة والوضوح يكون جمـــالا مصـــطنعا مجلوبا (١) .

وهكذا نرى أنه لابد من امتزاج هذه الصفات وتعاونها فيمـــا بينهـــا لإخراج أسلوب أدبى يكفل له البقاء والخلود ، ويكون ذا تأثير فى المتلقـــين . وكذلك الشأن فى نثر "دياب" فقد استطاع أن يقدم أسلوبا أدبيا تعانقت فيه الصفات الأسلوبية وتعاونت فيه كل العناصر الفنية على النحو الذى سبق ، مما جعله مرتاحاً إلى هذا الإنتاج .

---

(١) انظر الأسلوب ، محمد كامل جمعه ٩١ .

الخاتمة

"الحمد الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله" ..... وبعد.

فيجدر بنا بعد هذا التطواف فى نثر الكاتب "محمد توفيق دياب" أن نقف لنسجل أهم النتائج التى تمخض عنها البحث ، ومن أهمها :-

أولاً : أن التعرف على أحوال الأديب – من نشأته وحياته – يُعد أمراً ضرورياً لمحاولة تحليل النص الأدبى وتذوقه ، والوقوف على أسراره، وتفهم التجربة ومدى صلتها بمبدعها ، واستكشاف الأبعاد الشعورية التى تكمن وراء تلك التجربة .

ثانياً : أن النشأة والتربية التى يتلقاها أى إنسان ، تؤدى دوراً كبيراً فى تكوين الشخصية ، وقد أدت تنشأة "دياب" وتربيته ، وكثرة روافد ثقافته دوراً كبيراً فى تكوين شخصيته الأدبية والعلمية ، واتساع مداركه ، وتنوع ثقافته ورقيها .

ثالثاً : أن "دياب" قد تبوأ مكانة عالية بين الأدباء والمفكرين والسياسيين ولصحفيين ، ولا أدل على تلك المكانة من اختياره عضوا بمجمع الخالدين لما له من الفضل والمكانة فى دنيا العلم والفكر واللغة والأدب .

رابعاً : أنه بالنظر إلى الموضوعات التى تناولها "الكاتب" فى نثره نجد أنه اختارها بعناية ودقة فاختار القضايا والموضوعات التى تمس الواقع وتلامس مشكلات الناس والمجتمع ، بما فيها السياسية والاجتماعية والثقافية .

خامساً : استطاع الكاتب أن يقدم صورة حية ناطقة لمدة زمنية من حياة المجتمع المصرى ، لونها بمشاعره وأحاسيسه وعاطفته الصادقة ما جعلها خالدة فى سجل الفن الأصيل .

سادساً : استطاع الكاتب أن يجمع بين واقعية الموضوعات وشرفها وبين الخصائص الفنية ودقتها ، وذلك فى قدرة فائقة تدل على تمكنه من أدوات فنه ، مما كان سببا فى ذيوع أدبه وبقائه .

سابعاً : أثبتت الدراسة أن "توفيق دياب" كان من الكُتّاب المرموقين فى عصره لكن أحداً لم يلتفت إليه بالدراسة الأدبية ولعل السبب هو طغيان الجانب الصحفى عليه ؛ لذا فإن هذه أول دراسة أدبية عنه ، نرجو أن تكون قد أسهمت بقدر ولو قليل فى الكشف عن الكاتب وأدبه .

فهرس المصادر والمراجع

١- الأسلوب ، أحمد الشايب (الأستاذ) ، طبعة ٦ - النهضة المصرية ١٩٦٦ .

٢- الأسلوب ، محمد كامل أحمد جمعة (الدكتور) طبعة ٢ ، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٣ م.

٣- الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ٢ ، محمد محمد حسين (الدكتور) المكتبة النموذجية ١٩٨٠ .

٤- الاستعمار والتحرير فى العالم العربى ، جمال حمدان (الدكتور) ،دار القلم ١٩٦٤ م .

٥- البيان والتبيين، أبو عثمان عمر الجاحظ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣ .

٦- تاريخ النظرية فى علم الاجتماع واتجاهاتها المعاصرة ، محمد عاطف غيث (الدكتور) دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٨٥ .

٧- توفيق دياب ، ملحمة الصحافة الحزبية جـ١ ، محمود فوزى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٧ .

٨- توفيق دياب ، ملحمة الصحافة الحزبية جـ٢ ، محمود فوزى ١٩٨٩م.

٩- الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية فى العصر الحديث ، محمد كمال يحيى (الدكتور) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ .

١٠- الخطابة بين النظرية والتطبيق ، محمود محمد عمـــارة (الـــدكتور) ، سلسلة البحوث الإسلامية .

١١- الخلق الفنى ، مصرى عبد الحميد حنوره (الدكتور) ، سلسة كتابك ، دار المعارف ١٩٧٧ .

١٢- ديوان توفيق (لأعمال الكاملة) ، محمد توفيق على (الشاعر) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ .

١٣- الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية ، نجوى كامل (الدكتورة) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ .

١٤- عمالقة الصحافة ، حافظ محمود ، كتاب الهـــلال عـــدد ٢٨٤ ســـنة ١٩٧٤ .

١٥- عيون الأخبار ، ابن قتيبة الدينورى جـــ٢ ، الهيئة العامـــة لقصـــور الثقافة ٢٠٠٣ .

١٦- فن الدب – مختارات من شوبنهاور (بيلـــى ســـوندورز) ، ترجمـــة وتعليق شفيق مقار ، الدار القومية للطباعة والنشر .

١٧- (اللمحات) ، محمد توفيق دياب ، المجموعة الأولى ، مطبعة مصر – القاهرة ١٩٤٧ .

١٨- لمحات من أسرار العيان ، محمد فريد أبو حديد (الأستاذ) ، مطبعـــة دار الكتب المصرية ١٩٩٧.

١٩- المعارك فى الصحافة المصرية والسياســـة والفكـــر بـــين ١٩١٩ – ١٩٥٢ ، حافظ محمود ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٥ م .

٢٠- النقد المنهجى عند العرب ، محمد مندور (الدكتور) دار نهضة مصر للطبع والنشر .

- دوريات :

١ - جريدة الجهاد ، الأعداد من ١٩٣١/٩/١٨ وحتى ١٩٣١/٩/٢١ .

٢- جريدة الجهاد ، ١٩٣١/١٠/١٩ .

٣- جريدة السياسة ، عدد ١١ ، ١٩٣٢.

٤- جريدة الجهاد ١٩٣٢/٥/٢٤ .

٥ - جريدة الجهاد ١٩٣٥/١١/١٦ .

٦- السياسة الأسبوعية ، عدد ٦٠ ، ١٩٣٨ .

٨- جريدة الأهرام ١٩٤٦/٥/٢٣ .

٧- جريدة الأهرام ١٩٤٦/١/١٨ .

٩- جريدة الأخبار ١٩٥٥/١٢/١٧ .

١٠- جريدة الجمهورية ، ١٩٥٦/٣/٢ .

١١- مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الرابع والعشرون يناير ١٩٦٩ .

١٢- أخبار اليوم عدد ٢١ .

١٣- أخبار اليوم عدد ٢٢ .

١٤ - أخبار اليوم عدد ٢٥ .